وقاتَلْنا . . . . . بالغناء

بسم الله الرحمن الرحيم، : ﴿**يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفَّار، ولْيجدوا فيكم غلظة**﴾[1]، ﴿**وأخرجوهم من حيث أخرجوكم**﴾[2] قاتَلونا، أَخْرَجونا مِنْ ديارنا، كَثُر بيننا أيتام، كثُرت أرامل، قُتِلَ شباب، وذُلَّ شُيَّاب، دنَّست أعراض، ولُطِّخ شرف، وكان شيءٌ من هذا يسيرٌ كافياً ليحرِّك أو يثير، يكفي لأن ننهض ونطوي فراش الذل والهوان، يكفي لنطلِّق ملذَّات الأجساد وثلاثاً، ونهجر المتع، يكفي لنقف على الأرجل، ونجحظ العيون الحُمر صائحين: نحن هنا، يكفي لأن نُسمِعَ شعوبَ الأرض كلِّها أصواتنا صارخين: لنا عزَّة، فينا نخوة، ولكنْ ماذا كان منَّا؟ ليت ما كان لم يكن!، فما عَمِلْنا مشرِّفاً، ولا صنَعْنا سارَّاً، لقد رأيتَنا «صَمَدْنا»! وناجَزْنا عدوَّ الله . . . «بالغناء!»، نابذْناه «بالرقص!»، قارعْناه «بالعزْف!» نازلْناه «بالطبل!»، ناهضْناه «بالمزمار!»، وأخيراً، ويا للسخرية المرَّة، عاركْناه «بالدفوف!» العربية! العريقة!!، فقاسينا فِتَناً صمَّاء عمياء كموج بحرٍ لجيٍّ أسود، وكَقِطَعِ لَيْلٍ مُظْلِمٍ رهيب.

مثل هذا رآه شاعرُنا العظم، رأى أمَّتنا تقاتلُ وتدافع وتصون وتثأر. . . بالكلام:

تَعِسَتْ أُمَّـةٌ تُديرُ رحى الحـرب كلامـاً ومَنْـطقـاً ولسـانـا[3]

وهل يُجدي لسان أمام سنان؟ هل ينفع خطابٌ أمام رشاش؟:

أحـديثُ اللسـانِ يُجـدي وينفـعْ
وحـديثُ العـدوِ سيفٌ ومـدفـع؟
ودويُّ الـرشاش يُسْمَعُ في الكون
وقـولُ الخـطيب ما عاد يُسْمـع[4]

---

(١) التوبة ١٢٣.
(٢) البقرة ١٩١.
(٣) ص٨٥.
(٤) المكان السابق.

لقد حوى ديوانه «في رحاب الأقصى» مجموعة شعرية أطلق عليها اسم «فنّ وإعلام واستسلام»[1] صدَّرها بقوله سبحانه: ﴿**إنَّ الذين يُنفقون أموالَهم لِيَصُدُّوا عن سبيل الله، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يُغلبون، والذين كفروا إلى جهنَّم يُحشرون**﴾[2] ومهَّد لها بهذه الكلمات الموجعة:

على طريق الاستسلام . . . فنٌّ وإعلام!
من الخامس من حزيران الكارثة
والزيادة مضطردة:
في الخلافات العربية . . . والزعامات الحزبية!
في الآراء المطروحة . . . والحلول المفضوحة!
في الصحف المأجورة . . . والاذاعات المسعورة!
في مقاصف الخمر، ونوادي القمار، وعلب الليل، وبنات الهوى!
والأمَّة في ضياع: تؤلِّه الطغاة، وتستمرىء المأساة!
تكوى بنار الذل، وتغوص في وحل المهانة! . . .
من وحي ذلك كلِّه كانت هذه «المجموعة الشعرية» . . .
في الفن . . . والاعلام . . . والاستسلام!!!

بدأ شاعرنا مجموعته الشعرية هذه بأبيات عنوانها «أنغنِّي للهوى . . في مأتم»، مهَّد لها يقول:

«انطلقَ «الصوتُ» يغني للهوى . . . والليل . . . والحرمان!، وحمَلَتْ شاشةُ التلفاز الصغيرة مشهدَ صبايا يتمايلن، وفي أيديهنَّ دفوف ولا حرب . . . وسيوفٌ ولا جهاد! فكانت هذه الومضة الشعريةُ في دروب الظلام! قال:

نحــن يا فيروز ما عاد لنــا
أُذنٌ تهــفــو ولــلَّحــن تحــنُّ
كلُّ ما فينــا جراح ودمٌ
نازفٌ من كبــدٍ حرَّى تئــن

(١) ص١٨٢ وما بعدها. (٢) الأنفال ٣٦.

إنـمـا تطرب أُذن حرَّةٌ
إنـمـا يسـعـد قلب مطمئـن
أنـغـنـي للهـوى في مأتـم
ولـنـا من دمـنـا كأس ودنّ
وسـيوفُ الـحـرب لا نصـقـلُهـا
وسـيوفُ الـرقص للرقص تسـنّ
وطـبـولُ الـحـرب لا نقـرعهـا
وطبولُ «الفن» في الساح مجنّ[1]

وقارىءُ أبيات شاعرنا يحسُّ ما اعتمل في نفسه من ألم لما نحن فيه، فليتأملْ قولَه «ما عاد لنا أذن تهفو وللّحن تحنُّ» و«كل ما فينا جراح» ودم نازف «من كبدٍ حرَّى تئنُّ»، ولنا «من دمنا كأس ودنُّ»، فسيقول القارىء: «ما أكثر ما يأسى شاعرُنا لما يرى ويسمع!!»، جماهيرُ الأمة تعبث وتلهو، وكأنها في سؤدد وعزٍّ، وكأننا مبشرون بجنات، فأَمِنَّا ورضينا وفرحنا!!، يرى الشباب ـ عدَّة الوطن وعتاده ـ يردِّدون أغاني فيروز وغيرها، يتمايلون بخفَّة وطيش، ولو عقلوا لبكوا دماً بدل الدمع، لو عقلوا لذابوا حياءً كما يذوب السمن، ولو عقلو لا ستبدلوا بالضحك العويل، ولكن... هيهات هيهات.

أمَّا القصيدة الثانية في المجموعة الشعرية فسمَّاها «من وحي الأذان، أمس... واليوم!»[2]

مهَّد لها يقول: انطلق الأذان عبر الأثير يهزُّ المشاعر ويحرِّك الوجدان... وقبل أن أعود من آفاق الأقصى السليب في سبحة أثيرية خاطفة... عاد المذيعُ العربيُ بعد الأذان يعلن عن أغنية يردِّدها ماجن من الفارغين: أو كنت لي ذنباً سألت ألا يغفره! فانساب القلم على صفحة الورق... مرارة وحسرة وأسى، وأنا أذكر «صوتاً» آخر كان ينعي للأمة العربية كرامتها وهو يعلن أهداف الحياة لأجيالنا! الدنيا... سيجارة وكاس!.

من أبياتها:

(١) ص١٨٦.
(٢) ص١٨٨ وما بعدها.

كان لحـــنُ الـحـياة فينـا أذانـاً
يتــغـنّــى به الأبــاة الــصــيد
يمــلأون الــوجــود برّاً ونــوراً
حين يصحـو على الأذان الـوجود
واذا الــلحــن صيحــة من رفـيع
وإذا التـرس في المعـامـع «عود»
فغدتْ أمَّتي مع «اللحن» سكرى
يرســل «الـلحـن» فاجـرٌ عربيد

الله الله!!، كان اللحن أذاناً فصار عوداً ولحناً!!، كنَّا أحياء فبتنا كأموات، وإنْ كان بنا حراك، لم تعُد حواسُّنا تعمل، عيونٌ محملقة لكنها لا تبصر، وآذانٌ مشرَّعةٌ أبوابُها ولكنها لا تسمع، حتى عقول لا تعمل، ويح أمتنا، باتت تأمر بالمنكر وتنهى عن المعروف!، فغدتْ رذيلةً هيِّنة، وأضحتْ لقمةً للآكلين، باتت أضحوكة الأمم، كان شعارُها الأخَّاذ «الله أكبر»، لكنها استبدلت الأدنى بالذي هو خير، تاجرتْ برذائل سموِّها «فنوناً»، عليها «تقوم!» ليلَها، وعليها تفيق، بها تتسلَّى، وماكرون حاقدون. . . يرقبون.

شاعرُنا ـ جزاهُ الله أفضل ما يجازي ـ وهو من أفذاذ قادة فكرِها، وأعلامِ أدبها، صوَّر هذه الحقيقة المرَّة، فأجاد وأجاد، وأشعر بما شعر، وذلكم هو الشاعر الشاعر.

مَنْ منَّا ـ نحن جيل هزيمة حزيران ـ، جيل ضياع الأقصى، جيل القنطرة والقنيطرة، جيل جبل الشيخ وشرم الشيخ، جيل مسعدة الجولان، جيل الضفة الحزينة، وغزة هاشم الجريحة، وعرين العريش المهين، لا يذكر «أحمد سعيد»؟ وهل من عربي يجهل «أحمد سعيد؟» ذلك السعيد التعيس، المذيع المعروف، الذي «زرع البحر بطيخاً وقثأة»!، سمعناه قُبيل اعلان سقوط «البقية الباقية»، وزميلتيها الأختين سيناء وجولان، سمعْناه «يُطَمْئِنُ!» العرب الذين استقوا أنباءهم «الصادقة!» من مذياعه «العتيد!»، صوت «الـ. . .»، سمعناه سمعْناه «يزمجر!» وكأنَّه أسد أسد، وإذا به قطة، معذرة لا أريد ثناءً عليه، فلربَّما

استأسَدَتْ قطة هوجمت، أستغفرك ربِّي استغفاراً يليق بجلال وجهك وعظيم سلطانك، تذكَّرْتُ يا ربّ نهيَك الزاجر: ﴿**لا يسخر قوم من قوم**﴾، تُبْتُ إليك، فقد كان أحمد سعيد رجلاً، أعني ذكراً لا رجلاً، فليس كلُّ ذكرٍ رجلاً، لكنه خاطَبنَا وكأنَّنا أغنام!، سمعناه يقول والمعركة على أشدِّها: بُشرى يا عرب، بُشرى يا عرب، فَخُيِّل الينا أنَّ نَصْراً حاسماً حقَّقناه، كنتُ يومها أستعدُّ لـزواج، قلت: لعلَّني أقضي عرساً هنيئاً في الناصرة أو حيفا، وكم كانت الصدمة موجعة، حين سمعتُ بشارته تقول: «أم كلثوم معكم في المعركة!»، «شادية تقاتل معكم!»، «فايدة كامل تناضل إلى جانبكم» فانهزمْنا وانهزمْنا، وتقابلْتُ مع عروسي على الجسر المتهدم، وكان عرساً مشْبعاً بمرار الذل، لم تَمْسَسْه حلاوةٌ لولا ايمانٌ، صَمَدَ كقلعةٍ عزَّ قَهْرُها.

مثلُ هذه «التمثيليات» أو «المسرحيات» أو «الضحكات» التي يعوزها شرف، لا يجهلها حتى الصبيان، فأنَّى لمعلِّمِ جيل، رائدِ فِكْر، حاملِ عقيدة كشاعرنا أن يجهلها!، يقول:

مسخوا الحقَّ والحقيقة لمَّا
صار صوتُ الاعلام فيهم «سعيد»
يزرع البحر والهواءَ وُعوداً
لا يبالي ألاَّ يكون حصيد
شرعة الزور والضلال «مذيعاً»
إن يوم الهوان والذل عيد[1]

وقَلَبْنا الحق، وحرَّفْنا الحقيقة، وعَبَدْنا عصبيات واقليميات من دون الله، ولكنَّ ربَّنا سبحانه ما زال يُنْعم علينا بخير كثير، ازاء هذا، وبقلْبٍ ينفطر ألماً ولوعةً، لا يسعني غير أن أقول: أقسم بالله أن الله رحيم، أقسم بالرحمن أن الرحمن رحمن، وأقسم باللطيف أن اللطيف حقاً لطيف.

---

(١) ص١٩٠ و ١٩١.

كيف لا يألم شاعرُنا، وهو يقرأ خبراً يُضْحك ويبكي ، يقول الخبر: «منحتْ دولةٌ عربيةٌ غانيةً مِزْواجةً وما جنةً لعوباً لَقَبَ فارس. . . وقلَّدَتْها في حفلٍ رسمي ضمَّ القادة والسادة. . . أرفع وسام!» ، بهذا الخبر المضحك المبكي قدَّم لقصيدته «اللعوب الفارس»[1] التي قال فيها:

ويْح قومي ما للَّعوب تباهت
وغَدَتْ فارساً بغير حسام
تتهادى بين المعازف نشوى
وعلى ثغرها هزيل ابتسام
وتغنِّي لليل والخمر سكرى
وتباهي أترابها بوسام
يا بلاداً عزَّ الفوارسُ فيها
وخلا ساحُها من الضرغام
منْ تولَّى فرسانُها عن حماها
وتباروا في ساحةِ الآثام
تخذ الذلُ من عرينك داراً
بعدَ أن كان موطناً للكرام
واستبدَّ البغاث في ذروة النسر
وقاد الأسودَ سربُ النعام

قالوا «بطلة» وهي ساقطة، قالوا «أذكَتْ» في الشباب روح جندية، وهي أماتت الشهامة، وقتلتْ الحماس، وقالوا هي «فنَّانة»، وهي خليعة.

وكيف لقلبِ شاعرٍ مسلمٍ يغارُ على دين الله، وَحِمَى إسلامه، فلا ينفطر ألماً حين يرى «غانية» تقود أمتنا لحرب:

تقود أمَّتَنا للحرب غانيةٌ
والجيشُ في الزحف قد ألْهَتْه مَغْناةُ

---

(١) ص١٩٢ وما بعدها.

وكم لَعوبٍ تهاووا عند أرجُلها
كما تهاوت على نارٍ فراشات
الزقُّ والرقُّ والمزمارُ عدَّتنا
والخصم عُدَّته عِلْمٌ وآلات[1]

هذه أم كلثوم لن أعرِّف قارئاً عليها، فلا أظن عربياً يجهل «أفضالها!»، قالوا انها «كوكب شرق!»، قالوا انها «ظاهرة فنية عجيبة»، قالوا: إن حبَّ العرب لها يوازي حبَّهم لفلسطين، أما «الدكاترة!» زكي مبارك فقال في موازنته انها «ريحانة هذا العصر!»، أما الدكتور زكي الشيخ فقال في «كرباله» إنها «مصيبة العصر»، ويقول في كتابه هذا هي خضراء دمنة، أما شاعرنا العظم فرأى أنها «ظاهرة تخديرية رهيبة»، لا غَرْوَ أنْ ذهب شاعرُنا هذا المذهب، فهو يدرك «اللعبة» التي أُحكمت لتخدير الشباب، وهاهي قصيدته «خدِّريهم يا كوكب الشرق»[2] في تلك العجوز التي كان في موتها عبرة لمن هام بفنها، العجوز التي أماتها المميت الذي لا يموت... «وبالتقسيط»، عضواً عضواً، علَّ أدعياء الفن الخنوعين يعتبرون، قال فيها:

«كوكب الشرق» لا تذوبي غراماً
ودلالاً وحرقة وهياما
لا ولا تنفثي الضَياع قصيداً
عبقرياً أو ترسلي الأنغاما
فدماء الأحباب في كل بيتٍ
تتنزَّى وتبعث الآلاما
وجراح «الأقصى» جراح الثكالى
ودموع «الأقصى» دموع اليتامى
وأنينُ الكسمان صار أذاناً
في حمى البيت والنديمُ إماما

---

(١) ص٢٠٢.
(٢) ص٢١٣.

وإذا «لـيلتي وحـلم حياتـي»[1]

لم نحـطم في فجـرهـا الأصنـاما

لم تغـنِّي يوم الـتـشـرِّد حزنـاً

لا ولـم تدخـلي علينـا الخيامـا

ففـلسـطين لا تحبُّ السكـارى

ورُبـى الـقـدس لا تريد النيامـا

«كـوكب الشـرق» ضاع قومي لمَّا

تاه في حبّـك القـطيعُ وهـامـا

قد أطـاعـوا الهوى فضلَّتْ دروبٌ

سلكـوهـا وقـد أبـاحـوا الحـرامـا

منحـوكِ الإعجـاب يا ويح قومي

وعلى الصـدر علَّقـوك وسـامـا

ناولـيهـم من راحـتـيك كؤوسـاً

وامنحيهم من ناظـريك ابتسـامـا

وغنَّتها «كوكب شرقنا!» بعد مصيبة حزيران، ولسان حالها يقول: «هذه ليلتي» التي طالما كنت أرقبها وأتمنَّاها!، «هذه ليلتي» التي ضاع فيها ما كان باقياً من فلسطين!، «هذه ليلتي» التي أُسر فيها الأقصى!، و«هذه ليلتي» احتُلَّت فيها قدسُ الاسلام، انها ليلتي «وحُلم حياتي»! وكيف لا تكون ليلتَها وحلمَ حياتها، وهي كارثة جعلت كثيرين من كارهي أمَّة الاسلام، الحاقدين على ملَّة الايمان، الشانئين لغة القرآن، يُظْهرون كرماً ولا كَرَمَ حاتم، وأحْيَوا ليالي حمراء صاخبة ماجنة، على رواب وشواطىء، وذبحوا خرافاً ابتهاجاً بالهزيمة!، واستمر سَمَرُهم حتى لاحت تباشير الصباح، لقد والله أظْهَروا شماتة فاقت شماتة «ديَّان»، حين «استردَّ!!» القدس الشريف وقال: عُدْنا!!.

لَشَدَّ ما يُؤْلم، أنْ رأيْنا شباباً اتَّخذوا من أغاني الميوعة ملاذاً ومهرباً ممَّا

يلاقون من ضنك في حياتهم، مردُّه البُعْدُ عن الله، ظنوا ذلك يُنسيهم الشقاء، وردَّدوا أغاني أم كلثوم، أو غيرها من «فنَّانات!!» العصر، وملأوا البيوت بالتسجيلات، واقتنوا أجهزة اللهو والدمار، التي جادت بها قرائح العلماء، ولكنهم زيدوا شقاءً فوق شقاء، فالسعادة التي لهوا فيها سعادةُ قشور، سعادةُ لذَّةٍ سطحية عابرة، تُخْفي تحتها الأضغان والهموم، بخلاف سعادة مَنْ أنار الله قلبه بنورٍ من ايمان، ينظر إلى هؤلاء الضائعين من محرابٍ ايماني رفيعٍ، نظرةَ شزر، ولكنَّها تحمل في طيَّاتها دعاءً إلى الهادي العظيم، أن يلهمهم سبيل الرشاد، ليعودوا صالحين، نافعين، مهتدين، سلاحُهم القرآن، ونشيدهم الذي به يهيمون كلام الله سبحانه:

أُرتِّـل الـذكـر علَّ الـذكـرَ يحـفـظنـي
من الـخـطايا ويحـمـينـي ويرعـانـي[1]

الله الله! «أرتِّل الذكر»، «علَّ الذكر يحفظني»، ما أجمل أن يكلِّم العبدُ ربَّه!، بل ما أجمل أن يكلِّم الربُّ عبدَه!، ذلك هو «ترتيل الذكر»، فما «الذِكر» إلا كلام الله، فيه تقرُّ الأنفس، وبه تقرُّ القلوب وتطمئن.

---

(١) ص١٤٧.

obeikandl.com

شعر المناسبات بين الرفض والقبول

معلوم أنَّ دعاة التجديد في أدبنا الحديث، شنُّوا حرباً ـ وبلا هوادة ـ على شعر المناسبات الاجتماعية، حتى أنَّ شعراء «الديوان» أطلقوا على شوقي اسم شاعر المناسبات، ولنا ازاء هذا النوع من الشعر موقف، يتلخَّص في أنَّ هذا الضرب من الشعر انما يكون رذيلاً، حين لا يعبِّر الشاعر عمَّا يشعر، وبمعنى آخر، حين يحسُّ بشيء فيقول غيره، أي حين يتكلَّف ما لا يعتمل في النفس، وما لا يجول في الخاطر، فمديحهُ تكسُّب، وهجاؤه تزلُّف، ورثاؤه تقرُّب، أما اشادته بمشروع من المشاريع، فإرضاء لأولي الأمر، القائمين عليه، أمَّا تغنِّيه بمناسبات الوطن، فلكي يقال إنه ذو شعور وطني، مهتَّم بقضايا بلده، أو مصير أمته، مثل هذا الشعور رذيل حقاً، فناظمه يقرُّ في نفسه أنه مخادع، ومتخذٌ من فنِّه سبيلاً لشهرة آنيَّة، أو مجدٍ رخيص، ولكنْ، هل كلُّ مادحٍ ينافق؟ هل كلُّ راثٍ يخادع؟ هل كلُّ هاجٍ يتزلَّف؟.

لا، بل ألف لا، ولو كان الأمر كذلك لنفينا عَنْ خلْق الله سجيتَهم البشرية، فالإنسان بطبعه يحبُّ ويكره، ينجذب أو ينفر، ويتأثَّر ويألم، فإنْ ألمَّ حدث، أو نزلتْ نازلة، وتحرَّكَتْ عواطف الأديب من داخله، فتفتَّحتْ عيونُ ملكته، واستُثيرت همم موهبته، فنطقت ذلك أدباً حيَّاً معبِّراً صادقاً ناطقاً، فاعلمْ أنَّ الشاعر شاعر فذٌّ مرهفُ حسٍّ، متَّقدُ شعور، حادُّ بصر، حيُّ بصيرة، وإلاَّ، فاعلمْ أنَّه في قبور الأحياء، ومن الأحياء الأموات، وان كان لا يشعر.

والمتصفح لأشعار شاعرنا العظم يجد له شعر مناسبات، ولكنَّها مناسباتٌ جُبِلَت بالدم، دم المسلم الذي يغار على دين الأمة وكرامتها، وجدْناه يألم في مواقف ألم، ويتحسَّر في مواقف تحسُّر، بل ويبكي حيث البكاء إحساس ورحمة، وعدمُ البكاء جفوة وقسوة، وجدْناه يمتدح ما لا تُحجب مآثرُه، ويرثي مَنْ شاد بنضاله أو برِّه صَرْحاً لا يُجْحَد، أمَّا هجاؤه فهجاء أفعال لا أشخاص، هجاء أفعالٍ نبذَها الدين، وحذَّر منها قائد الأمة عليه السلام، شاعرُنا أحسن

التعبير عن الشعور، وشعرَ بما يعاني اخوةٌ في العقيدة، **فأشْعَرَ** قارىءَ شِعْرِهِ بما جالَ في الخاطر، ودارَ في الخَلَد، هذه معركةُ الكرامة، التي أحسَّ فيها المسلم حقّاً بكرامة، بعد ذلّةٍ كادت تقتُل، أنّى لها ألاّ تحرِّك أوتار قلْبه، الذي يتوثَّب لاستعادة كرامة أمَّة القرآن، فوجدْناه يقول:

عانقَ المـوت في رحـاب الكرامه
وسقى المجـد من دماء «النشامة»
من ضفـاف الأردن شرقـاً وغـربـاً
زاكياتٍ كالمسـك تروي رغـامـه
وحـدةٌ بالـدم الـزكـيِّ تجـلَّتْ
وإخـاءٌ لم ينـقـضـوا إبْـرامـه
كلُّ مَنْ رام صفَّـنـا بشـتـاتٍ
سوف يلقـى والله مُرَّ الـنـدامـة
يا شهـيداً مضـمَّـخـاً بدمـاءٍ
زانـك الجـرح في جبينـك شامـة
وعلى الـرغم من جراح الضحـايا
لم يلنْ عزمُـه ولـم يُحْـنِ هامـة
عمـريُّ الأمـجـاد غير جزوعٍ
فيه عزمٌ من خالـدٍ وأسـامـة
يصنـع المـوت أو يخوض المنايا
وعلى ثغـره الـوضيء ابتسـامـه[1]

وهذه ذكرى الشهيد منصور كريشان، الذي كان في قلبه حرقة، وفي عينيه إلى الشهادة شَوْق، فشاءَ الله أن ينال ما تمنَّى، ففاز بما أحبَّ، فرثاه شاعرُنا، وحقَّ لكريشان أن يُرْثى، فهو شهيدٌ وكفى، وهو «كان يحسن السجود لله، والشموخ في حومة الوغى، حتى لقي ربَّه راضياً مرضيًّا، قال شاعرنا فيه:

---

(١) ص٢٥ و ٢٦.

سال من جرحه دماءٌ زكيَّة
وعلى الثغر بسمة علويَّة
وجراح الشهيد تكتب بالفخر
سطوراً من عزَّةٍ وحميَّة
لا يبالي الردى، ويهزأ بالنار
وإن كان في لظاها المنية
قطع العهد أنْ يموت شهيداً
أو يعود الأقصى ويمحو الدنيَّة
ذاك «منصورنا» به نتباهى
فلْتفاخر به معان الأبيَّة
ولْيفاخر به رفاق سلاحٍ
وكفاحٍ وساحةٍ عربيَّة
زانه من هُدى الكتاب جلالٌ
واعتصامٌ بآيةٍ قدسيَّة[1]

وهلْ شهيدٌ كان قد:

قطع العهد أن يموت شهيداً
أو يعود الأقصى ويمحو الدنيَّة

لا يستحق رثاءً!! وهلْ مَنْ:

زانه من هُدى الكتاب جلالٌ
واعتصامٌ بآيَةٍ قدسية

لا يُرثى!!

إنَّه رمزُ كرامة، وسليلُ ايمان، ونبعُ شهامة، إنه من رفقةٍ أخيارٍ لبُّوا نداء الله، فوجب على مَنْ خَلْفَه أن يقضي حقَّه، وكما قال شوقي:

---

(١) ص٣٢ و٣٣.

يا أيُّهـا الـدمـعُ الـوفـيُّ بدارِ
تَقْضي حقـوقَ الـرفقـةِ الأخيار[1]

وهذه ذكرى شهيد آخر، هو الشهيد المجاهد القاضي محمد محمود الزبيرى رحمه الله، وهو من اليمين، نعم من اليـمن، لا من معان ولا من الأردن، زارها الشاعر فحقَّ عليه أن يذكر الشهيد، وكيف لا يذكره، والمناسبة هذه لا تَدَعُ قريحةً خصبةً، هذَّبها الايمان، إلَّا أثارتْها وجلَتْها، كيف لا يذكره، ورابطة العقيدة غضَّت الطرفَ أمامها كلُّ روابط سقيمة مهزوزة، وإلَّا، فما الذي ربط بين شاعرنا، الذي تشير «هويتهُ الشخصيةُ» إلى أنه أردني، من ذلك المرثي «اليمني» رحمه الله!! ابتعدا في الديار، ولكنَّ القلبين ارتبطا برباط لم تنفصم عُراه، فوجدْنا نبضات قلب شاعرنا المعطاء تجود بهذه الأبيات التي تفيض رقَّةً وإحساساً وعاطفة:

كلُّ قلبٍ تحـيةٌ وسـلامُ
كلُّ فَرْدٍ منـهـم خليلٌ سمـيرُ
ونـفـوسُ الأبـرار شفَّتْ صفـاءً
مثلمـا شفَّ في الـرياض الغـدير
يا لَفَجْـرٍ ينسـابُ في مقلة الليـ
ـل فيعـلو الـتـهـليل والـتـكـبير
كلَّمـا أرسَـل الصبـاح شعـاعـاً
أذَّنَ الديـكُ وانـتـشى العصفـورُ
وبـدَتْ صفحـةٌ من الحُسْن فيهـا
أسْـطُرٌ خطَّهـا البـديع القـديرُ[2]

وما كان شاعرُنا ليُهدي خواطره هذه، إلى هذا الشهيد رحمه الله، إلَّا كما قال: «تقديراً لجهاده، ووفاءً لاستشهاده»، وما ذلك إلَّا تاجٌ على جبين شاعرنا الوفيِّ الوضَّاء.

---

(١) الشوقيات جـ٣ ص٧٦.
(٢) ص١٢٤ و ١٢٥.

شاعرنا ـ بلا شك ـ يرى حملات الكيد التي دأَبَ تجَّارُ العصبيات على نشر سمومها، حين هم لم يَزِنوا بميزان الله، ولم يكيلوا بصاع محمد عليه السلام، فسموا كلًّا بإقليميته، وعلى تعداد دول الأرض، تناسوا أنَّ دين الله لا يقرُّ تلك الحدود وتلك القيود، وأنَّ «جواز سفر» فؤاد المسلم سيظلُّ «لا إله إلَّا الله، محمد رسول الله»، ومهما نأت الأمصار، أو خطَّط الاستعمار، سيظلُّ المسلم اليقظ يسخر بحواجز القطيعة، وسدود الذلِّ، سيظلُّ يعرِّي «سايكس بيكو» التي رسمت الحدود، وذلك كتبه المؤمن على جدار القلب، فوجدْنا شاعرَنا المؤمن العظم يقول:

كتيبــة الله قد حطَّتْ بســاحتــه
تسمـو بسلمـان أو تزهو بعثمان[1]

نعم، بسلمان «الفارسي» تسمو كتيبة الله، فسلمان هذا له فضله في ميزان الله، وإن لم يكن عربياً «أصيلًا عريقاً!!»، فأصالةُ العروبة وعراقتُها تستحيان من ذاتهما أمام أصالة الدين أو عراقته.

وهذه قصيدة رثاء أخرى هي «دموع بلا رياء»[2]، نظمها في رثاء المرحوم عليّ، شقيقه الأكبر، وعنوانُها يدلُّ على نقائها، ويشير إلى أنها من الرثاء الحبيب لا البغيض، فدموعُه «بلا رياء»، وهل في مناسبة كهذه دموع «برياء»!، قال:

إنْ تحــدَّرْتَ في الــتــراب عليلًا
فلقــد عشْتَ في النفـوس «عليًّا»

وليتأمل القارىء معي جميل التعبير، فالمرحوم تحدَّر في التراب «عليلًا»، وعاش في النفوس «عليًّا»، وهو «عليّ». ثم أليس رثاءُ الأخ دَيْناً؟ إنْ كان شوقي قال في رثاء أبيه:

سألــونــي لِمَ لَمْ أرْثِ أبــي
ورثــاءُ الأب دَيْنٌ أيُّ دَيْن[3]

---

(١) ص١٤٩.
(٢) ص٢٢٥.
(٣) الشوقيات جـ٣ ص١٥٤.

فلسانُ حالِ شاعرنا العظم يقول:

سألـونـي لِمَ لَمْ أرثِ «أخـي»
فرثـاءُ «الأخ» دَيْنٌ أيُّ دين

والمسلم إذا اشتدَّ حزنُه، وعَظُم خَطْبُه، لا يجد من يتأسَّى به خيراً من حبيب الله عليه السلام، الذي نال من ربِّه ما لم ينَلْ مخلوق، ومع ذلك أماتَهُ، نعم أماته، وقال له:

﴿إنَّك ميِّت وإنهم ميِّتون﴾[1]، وهكذا فعل شاعرنا:

وقـديمـاً ضمَّ الثـرى عبقـرياً
وحـكـيمـاً وقـائـداً ونـبـياً

﴿كلُّ من عليها فان﴾[2]، فحسْبُ آلِ العظم عزاءً سنَّةُ الموتِ في النبي عليه السلام، وقبْلَ شاعِرِنا قال مثل هذا شوقي في رثاء سعيد زغلول:

آل زغـلول حسـبـكـم من عزاءٍ
سنَّـةُ الـمـوت في الـنبيِّ وآلـه[3]

ووجدنا شاعرنا يقول:

إنَّـهـا سُنَّـةُ الـوجـود قديمـاً
أن يضـمَّ الثـرى نجـوم الثـريَّا

﴿منها خلقناكم، وفيها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾[4]، من الأرض، وفي الأرض، ومن الأرض تارة أخرى، وسواء مات نجمُ الثريا في ثرى أم في غيره، فالموت موت:

يموت في الغاب أو في غيره الأسد
كلُّ البـلاد وسـاد حين تتَّسـد[5]

---

(١) الزمر ٣٠.
(٢) الرحمن ٢٦.
(٣) الشوقيات جـ٣ ص١٣٢.
(٤) طه ٥٥.
(٥) الشوقيات جـ٣ ص٦٢.

وأبيات شاعرنا في رثاء المرحوم أخيه مؤثِّرة، لكنَّ ما يبعث على الأمل، أنَّ الخيط الايماني ظلَّ يسري متصلاً في أبياتها كلِّها، لم ينقطع، ولقد اعتبر عبرةً حيَّةً قريبة، فهو يسائل نفسَه كما ساءَل شوقي نفسَه حين قال في رثاء علي بهجت:

أحـقٌّ أنَّـهـم دفـنـوا عليًّا
وحـطُّوا في الثـرى المرءَ الزكيًّا[1]

ولكنها الحقيقة التي لا مراء فيها: «الموت حق»، وهي حقيقة تُرعب، فآنَ لعصاةِ القلوب أن يرتدعوا، وأن يعتبروا، وأن يرشدوا، آنَ لهم أن يحسبوا «حساباتهم»، أن يلمُّوا شتات «أرصدتهم»، ثم هم بعد ذلك كله ينظرون: أناجحون هم أم راسبون؟.

أمَّا الهجاء في شعر شاعرنا فهو يتَّقي فيه ربَّه، يهجو أعداء الله صراحة، وما أكثر مثل هذا في شعره!، أمَّا النوع الذي يهمُّنه هنا، فهو هجاء من تشهد «هويَّاتهم» أنهم مسلمون، من رعاة الأمور والرعايا، وفي مثل هذا، لا يخوض كما خاض كثير من جاهليي القرن العشرين، الذين ملكوا موهبة شعرية، مِنْ ذمٍ لأشخاص معروفين، وتوجيه أبشع أنواع الشتائم والسّباب، وانما وجدْناه يذمُّ الأفعال، لا الأشخاص، ووجدْناه يقول في مقدمة قصيدته الشهيرة: «ضلال... وخبال»[2]: «ليس في شعري هجاء للرجال... ولكنه هجاء للضلال!»، وما أكثر ما نجد شاعرَنا حريصاً، أن يقتفي سنَّةَ المصطفى عليه الصلاة والسلام! كان عليه السلام يرى نفراً يفعلون ما لا يُرْضي، لم يكن يشهِّر بهم، لم يكن يفضح أمرهم، وأنَّى له عليه الصلاة والسلام، أن يفعل مثل ذلك، وقد أدَّبه ربُّه فأحسن تأديبه!!، كان يصعد على المنبر فيقول: «ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا...» يسمع الفاعل المعنيُّ فيفهم أنه معنيٌّ، وقد ستر الرسول أمره، فيُقْلع عمَّا فعل، وهكذا فعل الشاعر المسلم العظم، بدأ القصيدة المذكورة عند قبر سيِّد الشهداء حمزة في أحد، فأثار ذلك في نفسه حميَّة اسلام، وعزَّةَ ايمان، وقارَنَ بين ما كنَّا وما نكون، فكانت هذه الزفرة الحرَّى:

(١) الشوقيات جـ٣ ص١٨٤.
(٢) ص٢٠٧.

كَسَـــرْنــا قوس حمـــزة عن جهـــالـة
وحــطَّمْـنــا بلا وعــي نبــالــه
فمــزَّقَــنــا الــعــدوُّ ولا جهــاد
وشــرَّدَنــا الـطغــاةُ ولا عدالــة
وبــاتــت أمَّــةُ الاســلام حيرى
وبــات رعــاتــهــا في شرٍّ حالــة
فلا الــصــدِّيق يرعــاهــا بحــزمٍ
ولا الــفــاروق يورثــهــا فعــالــه
ولا عثــمــان يمــنــحــهــا عطاءً
ويُرخص في سبــيل الله مالَــه
ولا سيفٌ صقــيلٌ من عليٍّ
يفــيِّئــنــا إلــى «عــدن» ظلالــه
ولا زيدٌ يقــود الــجــمــع فيهــا
لحــربٍ أو يُعــدُّ لهــا رجــالــه
ولا الــقــعــقــاع يهتف بالســرايا
فتــخشى ساحــة الــهيجــا نزالــه
ولا حطين يصــنــعــهــا صلاح
طوى الــجــبــنــاءُ في خَوَرٍ هلالَــه
سرى صوتُ الــمــؤذن في حمــانــا
وقــد فقــدتْ مآذُنــنــا بلالــه

مثلُ هذا ـ على ما فيه من زفران تلتهب ـ يُعَدُّ هجاء لأفعالِ «ضلال... وخبال» أتَيْناها عَن جهالة، ولْنَقُلْ: عن تجاهل، كَسَرْنا قوس حمزة وحطَّمْنا نباله، فصرنا فريسة، عاجزين عن صون الكرامة: لا أبا بكر لنا يرى، ولا فاروقاً يفرِّق بين حقٍّ وباطل، ولا عثمان يسخو ويجود، ولا عليًّا يرفع راية جهاد، لا زيداً يقود شباب أمَّة، ولا قعقاعاً يبثُّ حماساً، ولا صلاحاً يصنع حطين اسلام، فقد طوى الجبناءُ الهلال، فبات اسلامُنا «شفويًّا» لا «تحريريًّا عمليًّا»، وإن نادى المؤذِّن خمسَ مراتٍ كلَّ يوم «الله أكبر»، لم يعد هذا يثير فينا حميَّة ايمان، فنرفع

الرأس بعد طول خفضٍ، ونقول: حقًّا حقًّا، الله أكبر، فنمحو كلَّ معالم ذلِّنا مِنْ على وجه أرض الله.

ولْنتأمَّلْ قولَه في القصيدة:

وحـــادي الـــركـــب بومٌ أو غراب
وقـــد قاد الجمـوعَ «أبـو رغـالـه»
يُرَمْـــرِمُ مِنْ فُتـــاتِ الكفـــر قوتـــاً
ويَلْعـق من كؤوسـهـم الثمـــالـــة
فيرتـــع في مرابـــعـــنـــا دخـــيل
يطاردُ في حضـــارتنـــا الأصـــالـة

فهو ـ على ما فيه من وضوح ـ يكشف حقيقة مرَّة.

أمَّا ما يشغل بالنا هذه الأيام، فلخِّصه بهذا البيت:

وهَـــمُّ الـجَـمْـــع ثَوْبٌ أو رغـيفٌ
و«صـــكٌّ» من رصيدٍ أو «حـوالـة»

أما أسماءُ الأشخاص فنسيناها، وصرنا لا نذكر الناس «الكبار!» إلا بالألقاب، لم نعُد نقول: «فلان» و«أنا» و«أنت» و«هو»، وأصبحنا نقول بدلاً منها: «سعادته» و«سعادتك» و«سيادته» و«سيادتك» و«فخامته» و«فخامتك»، و«دولته» و«دولتك»، هذا بالنسبة للمخاطب والغائب، أمَّا المتكلم فمصيبته أكبر، فواحدُنا معجب «بنا» الفاعلين، كاره لتاء الفاعل، هو لا يقول في نفسه «فعلت» وانما يقول «فعلْنا»، ولا يقول «أنا» بل «نحن»:

وألـــقـــابٍ يتـــيه بهـــا قرود
ولـــيس لهـــا معـــانٍ أو دلالـــة
«ســعـــادتـــه» شقـــاء في شقـــاء
وقـــد رفعت «معـــاليه» السفـــالـــة

«سـيادتـه» يقـيم على هوانٍ
«سمـاحتُـه» يعيش مع الضـلالـة
«فـخـامتـه» هزيل ليس يدري
بأنَّ النـاس قد فضحـوا هزالـه
و«دولـتـه» يعـيش مع الأمـانـي
ويخشى أن تفـاجئـه الإقـالـة

وَهَدَمْنا صَرْحاً عظيماً بناه قادةُ أُوَل، نَحَّيْنا الدين جانباً، و«تَفَرْنَجْنا»، وتطفَّلْنا على موائد أمم الرذيلة، فذقْنا وبال الأمر، ونتجرَّع كؤوس الهوان:

مَضَـغْـنـا قَلْبَ حمـزة وانـثنينـا
نذوق الـمـرَّ أو نجـني وبـالَـه

مضغْنا قلْبَ حمزة!!، وبقسوةٍ فاقت قسوة هند بنت عتبة!!.

وقد طرق شاعرُنا باب شعر «الوجدان»، الذي يعتبر الركيزة الأولى في الشعر الحيِّ، كما قال دعاة التجديد في الأدب العربي الحديث، هكذا قال عبدالرحمن شكري:

ألا يا طائر الفردوس إن الشعر وجدان

وهكذا قال شعراء «الديوان»، وشعراء «أبولو»، وشعراء «المهجر» وغيرهم، ومن هذا الصنف قصيدة شاعرنا «أمِّي»[1] التي منها:

قالـوا حياتـك عطر قلت يُرْسلـه
قلب كبير يشـعُّ النـور مُذْ كانـا
قالـوا حياتـك حبٌّ قلت واهبـه
مَنْ هدهـد القلب إشراقاً ووجدانا
قالـوا حياتـك عطر قلت مصـدره
مَنْ أنبتتْ في حنايا القلب ريحانا

---

(١) ص٢٢١.

قالــوا حياتــك برٌّ قلت صانعُــه
صدرٌ كبــيرٌ غدا للبــرِّ عنــوانــا
قالــوا حياتـك لحنٌ قلتُ تعـزفـه
قمــريَّةٌ ملأتْ جنـبـيَّ ألـحــانــا
قالــوا حياتــك نبــعٌ قلتُ فجِّـره
مَنْ فاض مِنْ موطن الايمان ايمانا
قالـوا فمن تلك في دنياك تملأها
عطراً ونــوراً وإلهــاماً وإحســانـا
فقلتُ أمِّي التي هامتْ بها كبدي
في برِّهــا أنــزل الــرحمن قرآنـا
جزاكِ ربُّــكِ يا أُمَّــاهُ مغــفــرةً
وجنَّــة الخلد تكـريمـاً ورضــوانـا

فقلبُ الأم لا «يضفي» نوراً، وانما هو «يشعُّ» بالنور، فكأنَّما بَثُّ النور سجيَّةٌ فيه وطبْع، أضف إلى ذلك أنَّ إشعاع النور فيه ليس لأمد محدود، وانما هو «يشعُّ» النور «مذ كانا»!، وحياة شاعرنا «حبّ»، حبّ بنوّة صادق، وحبُّ أمومة حانية، هو أصفى وأنقى وأطهر وأخلص حبٍّ عرفه خَلْقُ الله. والأمُّ لا **تهدهد ولدها**، وانما هي تهدهد «قلبَه»، وفي ذلك تعبير أمين حيٌّ عمَّا بين الأم والولد، من رباط وشيج لا يبليه مَرُّ أيَّام، أو كرُّ دهور. حياةُ شاعرنا ليست عطرة عبقة فحسب، وانما «هي العطر» ذاتُه، لو كانت حياته «عَطِرَةً» فحسب، لكان عطرُها آتياً من مصدر ثانٍ، يَمنح العطر، هي «العطر ذاتُه»، وفي هذا تأكيد على أنَّ عِطْراً هذا حالُه لا ينضب معينُه، ونبعُه ثرثار لا يغيض. والأمُّ فوق ذلك لا تُنبت «في القلب» الريحان، وانما هي تُنْبته في «حنايا القلب». وحياة شاعرنا ليس «فيها برٌّ» فحسب، بل هي «البرُّ ذاته»، والذي صنع هذا البرَّ ليس «صدراً» فقط، وانما هو «صدر كبير». وحياةُ شاعرنا ليس «فيها لحن» وحسب، وانما «هي لحن»، عزفَتْه مَنْ لم تملأ «جنبه» ألحاناً، وانما ملأتْ «جنبيه».

وأخيراً، أُمُّه لا «تجعل» في دنياه العطر والنور والإلهام والأمان فحسب،

وانما هي «تملأ» دنياه كلّها، وفي ذلك كلِّه تعبير صادِقٌ حيٌّ أمين، عن حنان الأم ودأبِها على إسعاد الأبناء.

مديحُ الأمهات نِعْمَ المديح، وبِرُّ الأمهات نعم مِنْ برّ، ألَمْ يقرن سبحانه رضاه برضاء الوالدين؟ ألم يُقْرن سبحانه الايمانَ بوحدانيته بالاحسان لهما؟ ألم يقُلْ سبحانه «وبالوالدين إحسانا» بعد قوله عزَّ من قائل: ﴿**وقضى ربُّك ألَّا تعبدوا إلَّا إيَّاه**﴾؟ فإنْ كان شاعرُنا قال في أمِّه: «هامت بها كبدي»، ألا يعني ذلك أنَّ شاعرَنا استجاب للنداء الربَّاني العظيم؟ وشاعرُنا لم يقُل «هامت بها عيني» ولا «هام بها لساني»، فما أكثر ما تهيم العين أو يردِّد اللسان، والقلب ينفي ويفنِّد!!، وانما وجدْناه يقول: هامت بها «كبدي». وفي ذلك بيان أنَّ حبَّه هذا، خرق شغاف القلب، فتحكَّم فيه وتملَّك وتمكَّن.

أخيراً، إنْ كانَ ربُّنا تبارَكَتْ أسماؤه قال ﴿**وقل ربِّ ارحمهما**﴾ فإننا وجدْنا الشاعر يقول:

جزاكِ ربُّكِ يا أُمَّاه مغفرةً
وجنَّة الخلد تكريماً ورِضْوانا

ومِنْ شِعْر الوجدان كذلك قصيدتُه «وعفَّ عماد»[1] التي قدَّم لها يقول:

«قُدِّر لولدي عماد أن يمضي لدراسته الجامعية في بلد أجنبي... وأحسَّ الفتى بصفاء عقيدته، ونقاء فطرته، أنَّ دراسته في ذلك البلد، قد تقوده إلى غير طريق الله، فأرسل يرجو أن يعود حرصاً على ايمانه، وحفاظاً على دينه. وقُدِّر لعماد أن يستمرَّ في دراسته... فهل تراه كذلك يستمرُّ في صفاء العقيدة، ونقاء الفطرة، وعفَّة السلوك؟!»، قال فيها:

رقَّ حتى صار عطراً وضياءً ونسيما
وبدا حازماً كحدِّ السيف وضَّاء وسيما
وسما فوق جبين النجم عنواناً كريماً
وصفا نفْساً وخلقاً وسلوكاً مستقيما

(١) ص٢٢٨.

رجـم الـشـرَّ فذلَّ الـشـرُّ وارتـدَّ رجـيمـا
ودعـا الله فلبَّـاه رؤوفـاً ورحـيمـا
يا عمـاد الـدين لا تنـدم فقـد كنـت حكـيمـا

كم طوت تلك الـمـتـاهـات صبـايا وشـبـابـا
فتـمـرَّدْتَ عليهـا صـادقـاً ترجـو ثوابـا
ورفـضْـتَ الـبـاطـلَ الـمـظلمَ واخـتـرْتَ الـكـتـابـا
فأنـار الـحـقُّ في جنـبـيك للجـيل شهـابـا
وبـدا الـنـورُ على وجـهـك آمـالاً عذابـا
والـهـدى بَرْعَـمَ في صدرك أزهـاراً وطـابـا
يا عمـاد الـدين لا تطرقْ لغـير الله بابـا

فعمادُ أحسَّ أنَّ دراسته في ذلك البلد «قد تقوده إلى غير طريق الله»، فبَدَا «حزماً كحدِّ السيف»، وسما «فوق جبين النجم» و«صفا نفْساً» و«رجم الشرَّ» و«دعا الله فلبَّاه».

أمَّا اسمه «فعماد»، ولكنَّ والده الشاعر أطلق عليه اسم «عماد الدين» ليؤكِّد المنحى الديني، وإلاَّ لماذا كان أرسل إلى والده يرجو أن يقطع الدراسة ويعود؟.

كان غَرَضُه حرْصاً على ايمان، وصوْناً لعقيدة، وحفاظاً على الدين، نعم، الحفاظ على الدين، فاستحقَّ ـ وبجدارة ـ أن يسمَّى «عماد الدين»، تماماً كما سمَّى أبو تمام فتْحَ عمورية، لم يسمِّه فتح عمورية، وانما سمَّاه «فتح الفتوح»:

فتـح الـفتـوح تعـالى أن يحيط به
نظمٌ من الشعر أو نثرٌ من الخطب[1]

ففتح عمورية لدى أبي تمام «فتح الفتوح»، وعماد لدى أبيه الشاعر «عماد الدين»:

---

(١) ديوان أبي تمام، شرح الخطيب التبريزي، المجلد الأول ط٤ ص٤٠.

يا «عماد الدين» لا تندم فقد كنت حكيما
يا «عماد الدين» لا تطرق لغير الله بابا

وما أكثر ما أصاب الحقيقةَ قولُه:

كم طَوَتْ تلك المتاهاتُ صبايا وشبابا

أوَ غريبٌ ذاك الذي بدر من عماد أو من أبيه؟ لا والله، ومَن قال غير هذا كان ضالاًّ أو مضلاً، قائلُ غيرِ هذا مكابر أو مجادل بما لا يعلم، مَنْ أنكر هذا كان كمن أنكر مرار علقم أو حنظل، كان كمن يعيش في ظلام دامس فيقول: ما أنصعه من ضياء!، كان كمن يشرب ملحاً أُجاجاً فيقول إنه لعذبٌ سائغ للشاربين، كم بعثَتْ أُسرُنا بشبابها «ليتعلَّموا»، فتعلَّموا... الجحود والفساد، وعادوا بأخلاق معلِّميهم، وبتقاليدهم، وبأفكارهم، وبكلِّ ألم... بدينهم وعقيدتهم!!!

نعم، وألف نعم:

كم طوت تلك المتاهات صبايا وشبابا

إلاَّ مَنْ رحم ربُّك، إلاَّ مَنْ أراد الله به خيراً، إلاَّ مَنْ وهبه الله عقلاً يعقل:

فتيةٌ زادهم الله هدى حين استقاموا
فأطاعوا الله ربّاً وله صلُّوا وصاموا
ونبيُّ الله للركب رسول وإمام
جاهروا بالحقِّ منهاجاً إذا عزَّ الكلام
يصنعون الفجر بالعزم لينجاب الظلام

وما أجمل ما يخاطب به شاعرُنا ولده حيث يقول:

يا عماد الدين لا تطرقْ لغير الله بابا

فأبوابُ الخلْق توصد، أبوابُ الخلْق تجرح كرامة الكريم، أبوابُ الخلْق تخدش الخاطر وتؤذي النفْس، أمَّا بابُ الله الكريم، فهيهات هيهات أن يُغلق.

obeikandl.com

والملاحَظُ، أنَّ شاعرنا يجيد أكثر ما يجيد، حين يطرق موضوعات تتصل بالدين، وترتبط بالعقيدة، ولا سيَّما موضوعات الجهاد، والقدس، والأقصى، وعزَّة المؤمن، والشهامة، والكرامة، والأخلاق، والقيادة، والإخلاص، والوفاء، وما إلى ذلك من موضوعات حيَّة مثيرة مؤثِّرة، تُقْلِق مَنْ كان ذا دين، فما أنْ يقرأها صاحبُ عقيدة، مهتم بأمر المسلمين، حتى يشعر وكأنَّ شَعْر جسده انتصب كأُبر، ويحسُّ وكأنه في حومة وغى، والدائرة تدور، والمعركة تلتهب، والدماء تسيل، يحسُّ وكأنه جندي أمين في جيش خالد أو سعد أو صلاح، قارئُها في هذا الزمن «الأبيض!» لا يُلام لو امتحن قلبَه بعد القراءة: أفيه حمية دين؟ أفيه عزَّة ايمان؟ أجديرٌ هو أن يكون جندياً في جيوش أولئك الأبطال القادة، أم سيقول «إنا هاهنا قاعدون»؟ أمَّا أنا. فلن ألومه لو بدأ «يتحسَّسُ» جسدَه، ليرى «وبالعين واللمس» أحقاً هو رجل؟؟!! ليطمئنَّ قلبُه ليس أكثر، تماماً كما عبَّر البحتري الذي قال:

يغـــتـــلي فيهـــم ارتـيابـي حتـى
تتـــقـــرَّاهـــم يداي بلمس[1]

ولمَ العجب؟ ألا يبلغ تعدادُنا مائتين وخمسين ضعفاً من تعداد عدوِّنا!! فهل نحن «خشبٌ مسنَّدة»؟ هل نحن صمٌّ بكمٌ؟ أم نحن لا نرى ولا نشعر ولا نحسُّ؟ هل تعطَّلَتْ كلُّ حواسِّنا عن عملها؟ ألنا قلوب بها نفقه؟ إنِّي لفي شكٍّ، إنِّي لفي شك.

والملاحظ ـ من وجهة نظري ـ أنَّ شاعرنا حين يطرق موضوعات اجتماعية، خاصَّة ما يدخل منها ضمن حدود ما يُعرف باسم «الاخوانيات»، فإنَّ شعره يفتر، تهبط حرارته، ويتضاءل أثرُه، وتهدأ حدَّةُ عاطفته، مثال ذلك ـ ولكلِّ عينٍ نظرة كما يقولون ـ قصيدة له عنوانها «عتاب»[2] قدَّمها «إلى مَنْ تركني في ذهول وتساؤل لا ينقطع: ويحك، ما السبب؟!» قال فيها:

---

(١) ديوان البحترى، دار صادر، المجلد الأول ص١٩٢.

(٢) ص٢٣١.

ما ضرَّ قلبــك لو عاتبْتَ يا **قاسي**
وقـد أصبْتَ بسهم الظلم إحساسي
قد كنتَ في حِضْنِ آمالي أهدهده
فبــات قلبُــك مملوءاً بوســواس
إنْ كان ابـليسُ أمـلى يوم فرقتنــا
من غير ذنبٍ فبئس المارق العاصي

قلْ لي بربِّـك ما سرُّ الجفـاء ومـا
سرُّ الـتـنـكُـر للجـرَّاح والآسـي
صوَّبْتَ سهمك تَرْمي صَدْرَ صحبتنا
وكنت زينــة إخــواني وحــرَّاسي
أتـطفىءُ النورَ في دربي وتخذلني
والـدرب دربي والنبـراس نبراسي
لكَمْ حَزِنْتُ على عَهْــدٍ تمــزِّقــه
وكم أسِفْتُ على لَوْحٍ وقـرطـاس

فالتعبيرات «يا قاسي» و«بات قلبك مملوءاً بوسواس» و«من غير ذنب» و«ما سرُّ الجفاء» و«صوَّبْتَ سهمك» و«أتطفىء النور في دربي؟» و«لَكَم حزنْتُ على عهدٍ تمزِّقه» تقليدية متوارثة، بات أثرها فاتراً.

والحقيقة أنَّ كلَّ شعر ـ ومهما كان موضوعه ـ هو «شعر مناسبات»، فشعرُ الغزل مناسبته الحب، وشعر المديح مناسبتُه الاعجاب بالممدوح، وشعر الهجاء مناسبته الكرهُ للمهجو، وشعر الرثاء مناسبته الشعور باستحقاق الميت الثناء، وشعر الوصف مناسبته الاعجاب بالشيء الموصوف، أو بيان حاله، حتى الشعر الوطني مناسبته شعور بواجب نحو وطن، وكذلك الشعر الاسلامي مناسبته شعور بواجب نحو العقيدة والأمَّة، وحتى شعرُ الوجدان مناسبته الافصاح عمَّا يدور بالوجدان، «فالمناسبة» إذاً هي بمثابة «محرِّك» يحرِّك عاطفة الشاعر، هي بمثابة «حافز»، يحفز على خوض غمار الشعر، هي بمثابة «مثير» يثير الموهبة،

فحين تتلاشى «المناسبة» فإنَّ ذلك يعني أنَّ الشاعر ينظم شعره مِن لا شيء، بلا محرِّك أو حافز أو مثير، يعني الافتقار إلى التجربة، فبذلك يكون الشعر بارداً أو فاتراً، وبذلك يأتي الشعر سقيم العاطفة، ركيك العبارة، غثَّ الأسلوب، ومريض الخيال.

obeikandl.com

تجديد لا تبديد

من عظيم صُنْع الله سبحانه، أنْ جعلَ الحياةَ تتجدد، لا تستقرُّ على حال، ولا تدوم على صورة، فجعل سبحانَه فصولَ السنة أربعة، لِتَبْدو الطبيعةُ ـ كتاب الله المنظور ـ في حُلَلٍ متجدِّدة، ولْنتصوَّرْ لو كانت حلَّتُها واحدة، في الاثنى عشر شهراً، كم ستكون حياتنا مملَّة كئيبة!!، ومِنْ عظيم صُنْع الله سبحانه، أنْ لم يخلق البشر كلَّهم متساوين في الأعمار، وانما سبحانه يَخْلق ويُميت، وخَلق ويخلق، فهذا ابن تسعين، وذاك ابن عشرين، ذاك ابن سنة، وذاك ابن ساعة، ولْنتصوَّرْ أنَّ خلْقَ الله جميعَهم أبناء سبعين، كم ستكون حياتُنا أيضاً مملَّة كئيبة!! كان يُخيَّل لي، أنَّ كلَّ رجلٍ يفضِّل من الزوجات مَن كانت ذاتَ جمال، حتى سألْتُ أخاً أسود، غليظ الشفتين، مشقوق الوجه، أجعد الشعر، مُداعِباً: أترغب زواجاً من شقراء جميلة؟ وإذا به يثور ويثور، عادَّاً ذلك منِّي إهانة!!، مؤكِّداً لي أنَّ جَمالَه المفضَّل المطلوب، لديه ولدى أبناء جلدته كلِّهم... السواد السواد!!، قلْتُ في نفسي: سبحانك ربِّي ما أعظمك! لو كانت رغائبُ الناس **كلِّهم واحدة،** كم سيكون على وجه الأرض من ظلم!، وكم مئات من ملايين النساء سيُحْرَمْن من زواج حلال!!، سبحانك سبحانك ما أعظم قدرتك! وما أكثر عدْلك! أنت أنت الرب الذي تستحق أن تُعْبَدَ، فإيَّاك نعبد، إيَّاك نعبد.

مِنْ عظيم صُنع الله سبحانه، أنْ جعل مخلوقاته الأخرى تختلف حجماً، فلا عمرُها واحد، ولا حجمها كذلك، كذلك الأشجار، كذلك النباتات، حتى كذلك الجمادات. حتى السماء، لم يزيِّنْها سبحانه بكواكب حجمها واحد، سبحانه سبحانه، خلقَ كوْناً متناسقاً متكاملاً فأبدع، أَحْسَنَ كلَّ شيءٍ صُنْعاً، ودبَّر أمْرَ كلِّ ما خَلَق، لينتظم الكون، وتستمر الحياة.

سنَّةُ الله اقتضتْ أنْ يكون هناك تجديد، تجديدُ بنَّاء، تجديد متناسق، تجديد كلُّه حلقات، ترتبط الواحدة بالأخرى قبلها، وبالأخرى بعدها، ألم تَرَ كيف أينعتْ أشجار، فبدتْ غضَّة ناعمة جديدة بهية؟ ما كانت لتكون، لولا أنها اتكأتْ على سيقان قديمة، وجذوع صلبة، وجذور تضرب في أعماق الأرض،

سبحان الله العظيم، هذه سنَّته سبحانه في الخلق، أوراق تتكىء على أغصان، وأغصان تعتمد على سيقان أو جذوع، أطفال يتكئون على آباء، وآباء على أجداد، نظام بديع محكم، ما كان ليوجد لولا أن الربَّ الخلاَّق عظيم قادر وحكيم.

والأدب يخضع للنظام ذاته، وللسنَّة نفسِها، الأديب الحديث يتكىء على سَلَفِه، فلا أدب من لا شيء، لا يوجد أدب جديد يفتقر إلى قواعد أو أسس أو جذور، فإنْ وُجد فهو أدب يعوزه أدب، فالطفرة الأدبية هي في الحقيقة قفزة غير ناجحة، وصاحبُها واقعٌ ومكسورٌ لا محالة، وسرعان ما يكون أضحوكة، لمن آمنوا بالتناسق الطبيعي البنَّاء، الطفرة الأدبية جنينٌ أدبيٌّ، لكنَّهُ غيرُ متكامل النمو، فلا مفرَّ من الاجهاض، شاءَ صاحبُ الطفرة أمْ أبَى، الجديدُ حين لا يتكىء على قديم، يكون كمن بنى بيتاً من غير قواعد، أو أركان، أو كمن خطَّطَ لبناء طوابق علوية من غير قواعد أرضية.

والوقوف في وجه التجديد انهزام، وكلُّ جيلٍ هيَّأه مدبِّرُ الكون لعصره، فمن عاش في غير عصره مُغايراً لجيله، كان كمن يسير في اتِّجاه معاكس للتيار، وكان كمن يقود سيارته في اتجاه معاكس. ونحمد الله ربَّنا العظيم، أنْ وَجَدْنا شاعرنا العظم، محافظاً على «قواعد السير» الأدبي، فقاد «سيارته» الأدبية في الاتجاه الطبيعي الحق، ورأيْناه موفَّقاً خير توفيق، رأيناه يعطي أوزانه الشعرية حقَّها فلا يبخس، ورأيْناه يحفظ للقافية «حُرْمَتَها»، ومع ذلك وجدْناه ينظم شِعْراً على شكل مقطوعات صغيرة، لكلِّ مقطوعة قافية، فبذلك، لم تكن القافية عائقاً يعيق الانطلاقات الشعرية، كما لم تكن مهينة لا يحسب لها حساب، هذه قصيدتُه البديعة: «دعوة الحق: الله أكبر»[1] شاهد على ما قلْنا، بدأَها بمقطوعة اتَّخذ فيها الميم المكسورة رويّاً لأبياتها، مختتماً كلَّ مقطوعة بلازمة تنتهي بقوله: «الله أكبر»، هكذا:

دعــوة الــحــق تعــالتْ من فمي
ونــداء الــمــجــد دوَّى في دمــي

(١) ص٨٧ وما بعدها.

كم زهتْ في الكون أسمى صفحةٍ
كلمـا أشـرق نور الـمـسـلم
سائـلوا الكفـر الـذي أنكـرني
ورمـانـي بسـلاحٍ مجـرم
يوم كان الجهـلُ في ساحـاتـه
كنـتُ أسـتَـلْهـم وحـي الـقـلم
يوم كان الـبـرء من كفِّـي له
كنـت لا أعـرف طعـم الـسـقـم
فشـفـائـي إنْ علتْ ... الله أكـبـر!

ثم ينتقل إلى قافية أخرى، متخذاً النون الساكنة رويًّا لها هكذا:

ردِّدوهـا دعـوةً في الـعـالـمين
تمـلأ الآفـاق حقـاً ويقـين
وابـعـثـوا في ظلِّهـا مَنْ بايعـوا
جحـفـلَ العـزَّة والفتـح المبين
كم صحـا الكـون على أصـدائها
شامـخ الجبهـة مرفـوع الجبين
وصـحـا القلب على أنغـامهـا
صادق الخفقـة موصـول الحنين
يرتـجـي الـرحـمـة من بارئـه
ويـنـاجي ربَّـه في الـسـاجـدين
ردِّدوهـا وارفـعـوا راياتـهـا
فبـهـا عزُّ الـحـمى دنـيا ودين
قد علَوْنـا قد علَتْ: ... الله أكـبـر!

ثم ينتقل إلى قافية ثالثة رويُّها دال مكسورة:

ردِّدوا الـدعـوة في ساح الجهـاد
واسمعوا الأقصى جراحات ينادي
ردِّدوهـا حرَّةً مؤمـنـةً
في سهـولي وجبـالي ووهـادي
وازرعـوا الموت لظىً في ساحتي
وأثـيروا الـحـرب في كلِّ بلادي

. . . . . .

ولـتـكـنْ روح الـهـدى. . . الله أكـبـر!

ثم قافية رابعة رويُّها راء مشبعة بفتح :

ردِّدوهـا بَلْسَماً يشفي الصـدورا
وابعثـوهـا في الـدُّنـا ناراً ونـورا
أيُّهـا الـجـنـديُّ يا مَنْ ضيَّعـوا
جُهْـدَك الـخـيِّرَ بهتـانـاً وزورا
إنْ صَنَعْتَ النصـر أو ذُقْتَ الردى
نِلْتَ من ربِّـك جنَّـاتٍ وحـورا

. . . . . .

خيرُ ما تُجـزى به. . . الله أكـبـر!

ثم خامسة رويُّها حاء مكسورة:

ردِّدوهـا دعـوةَ الـحقِّ الصُـراح
وابعثـوا أصـداءَهـا كلَّ صباح
فهـي رمـزٌ لإبـاءٍ شامـخٍ
وهـي عنـوانُ جهـادٍ وكـفـاح

. . . . . .

وينـادى للـعـلا . . . الله أكـبـر!

فسادسةٌ رويُّها راء مشبعة بفتح ، فسابعة ، رويُّها همزة ساكنة ، فثامنة رويُّها

هاء ساكنة.

وهي قصيدة تُعدُّ نشيداً حياً مؤثراً، يحرِّك أوتار القلوب المؤمنة، ما أحوجَ شبابنا أن يحفظوها ويحفظوا مثلها، لتُجْبَلَ العزَّةُ الايمانيَّة، والرجولةُ والإباء... في الدماء. ومثْلُها القصيدة التي تليها، والتي عنوانُها «بسمة الشهيد الصامت»[1] وَجَعَلَها ثلاث مقطوعات شعرية، اتخذ للأولى الميم المكسورة رويًّاً:

اكـتـبْ حياتـك بالـدمِ
واصـمـتْ ولا تتـكـلَّم!
فالـصـمـتُ أبلغ في جراح الحـادثـات من الفم

... ...

واتَّخذ للثانية النون الساكنة رويًّاً:

اكـتـبْ حياتـك بالـيقـين
واسلُكْ دروبَ الصـالحين
فالـصـمتُ مِنْ حُرٍّ يفـوق
زئـير آسـاد الـعـرين

... ...

وللثالثة الميم الساكنة:

اكـتـبْ حياتـك بالألـم
واصـرعْ عدوَّك بالـقـلـمْ
فمـداده أقسـى على صدر الـغشـوم من السقمْ

... ...

ومثْلُهما كذلك قصيدة «أمَّة الأصنام»[2]، التي تألَّفَتْ مِنْ خمس مقطوعات، كلُّ مقطوعة خمسةُ أبيات، رويُّ المقطوعة الأولى هاء مشبعة بفتح، والثانية لام ساكنة، والثالثة عين ساكنة، والرابعة عين ساكنة، وأمَّا الخامسة فهاء ساكنة.

---

(١) ص٩٥.
(٢) ص٩٩.

وكذلك قصيدته «نسمات . . . من أفياء الأقصى»[1] وقصيدته «رجعة . . . ياربّ»[2] وقصيدته «وعفَّ عماد»[3].

وطرقَ شاعرُنا نموذجاً فريداً في تنويع القوافي، إذْ جاء بأبياتٍ ثلاثة بقافية موحَّدة، ثمَّ أتى بلازمة تشتمل على بيتين متَّحدي القافية، ثم بأبيات ثلاثة أخرى لها قافية غير الأولى، ثم باللازمة الأولى نفسها، ثم بأبيات أخرى ثلاثة لها قافية غير السابقتين، ثمَّ باللازمة ذاتها، هذا ما فعله في نشيده المعبِّر المؤثِّر «حماة الأقصى»[4]، الذي قال فيه:

نحـنُ أجـيالُ الـغـد
وجـنـودُ الـسـؤدد
قد نهـلْنـا علْمـنـا
من كريم الـمـورد
من سنـا قرآنـنـا
والـهـدى الـمـحـمَّـدي

ثم جاء بلازمة:

فاشهدي يا أرضُ واصغي يا سماء
أنـنـا لا نبـتـغي غير الـبـنـاء
مذْ سلكْـنـا درْبـنـا في عزَّةٍ
ومـضـيْـنـا في ركـاب الأنـبـياء

وكرَّر مثل هذا ثلاث مرَّات في القصيدة الواحدة.

كما طرقَ نموذجاً آخر من نماذج تنويع القوافي، حيث جاء ببيتين متَّحديْ القافية، متشابهي التفعيلات، ثم جاء بلازمة، لها تفعيلات شطر أحد البيتين، وهذا واضح في نشيده «حيَّ على الجهاد»[5]، هكذا:

---

(١) ص١٠٦.
(٢) ص١٦٤.
(٣) ص٢٢٩.
(٤) ص٢٤١.
(٥) ص٢٤٥.

سائــلوا الأنــجــمــا
كيف ضاع الــحــمــى؟
واشــربــوا الــعــلقــمــا
أو نرى الــمــسـلمــا
فوق هام الــوجــود

ونظم شِعْراً على شكل رباعيات، كما في «رباعيَّات من فلسطين»[1]، ضمَّنها احدى وعشرين رباعية، كلُّ واحدةٍ أربعة أبيات متَّحدة الوزن والقافية.

هذا ما يخصُّ تجديدات شاعرنا في الأوزان والقوافي، أمَّا التجديد في الموضوعات، فموضوعاته التي طرق جديدة مبتكرة، فيها طرافة، ولها جاذبية، لها رونق، وفيها حلاوة، تفتح شهية مَنْ آتاه الله فماً حلواً معافى، وتقرّ لها عيون العاقلين، بل تطمئنُّ لها بصائر الذين يفقهون، ولْيتأمَّلْ القارىءُ معي بعضاً من عناوين قصائده، علَّه يدركُ ما أدركْت، ويحس ما أحسسْت، من قصائده: بسمة الشهيد الصامت، في محراب القلب، اللعوب الفارس، رَجَمْتُ إبليس، حَمَلٌ وادعٌ ولَيْثٌ هصور، لَبَّيْتُ بالقلب، اليتيم الأعزّ، الباب الذي لا يُغلق، نبضات القلوب، باسم الشعب ولا يدري، وغيرها كثير كثير.

كذلك طرقَ موضوعات تتصل بحياة «اللاجئين»، منها: ١٥ أيَّار، يوم المؤن، الغوث، رغيف الذلّ، غزَّة الشامخة، فتاة القدس، سموم، نار على المحراب، مجرم، توثُّب، وغيرها، وقارئُها يحسُّ أنَّ الشاعر أحسن وأتقن، وإحسانُه وإتقانُه ما كانا ليكونا لولا أنَّه أَحَسَّ فأَحْسَنَ، وعانى فأتقن، فشعَرَ فأشعر، وتلك سمات الشاعر مرهف الاحساس، متَّقد الشعور، إسلاميِّ الوجهة.

كذلك كان للأطفال نصيب من شعره، وهذا واضح في نشيده العذب الجميل: «براعم الأقصى»[2] الذي منه:

---

(١) ص٢٤٨-٢٧٠.
(٢) ص٢٣٧.

تفتَّحي بحنان
في خافقي وجنان
فأنتِ منْيةُ نفسي
وأنتِ درعُ الأمان
إنْ أبعَدَتْني الليالي
عنها غريباً تراني
عَشِقْتُ لثغة طفلٍ
فيها وهمْتُ بثان
والكلُّ عندي أثير
يحتلُّ أغلى مكان
في القلب منِّي اشتياق
وذكرُها في لساني
براعم الجيل غنِّي
وردِّدي ألحاني
فأنتِ عنوان مجدٍ
وأنتِ رمزُ الأمان
رفَّتْ أزاهيرُ عمري
في روضةٍ من حنان
لو ساءَلوا عن فؤادي
لقلْتُ في عمَّان
مع البراعم يتلو
ترتيلة القرآن

وقارئُ الأبيات يحسُّ ـ وبلا شكّ ـ أنَّ قلب الشاعر هو الذي يُنْشد لا لسانُه، وأنَّ الرحمة بالأطفال، والحنوَّ عليهم ملأ عليه جوانب النفس، وما ذلك إلا تلبيةً لدعوة الرسول عليه الصلاة والسلام، الذي أوصى أن نرحم الصغير، فوجدْنا موهبةَ شاعرنا الشعرية تجود بأعذب ألحان، وأرقّ مشاعر، وأصدق أحاسيس. ولْيتأملْ القارئُ قولَه:

عشـقْـتُ لثـغَـةَ طفـلٍ
فيهـا وهِـمْـتُ بشـان

فسيحسُّ أنَّ بين الشاعر وبين «براعم الأقصى» وُدّاً وألفة، وما أعظم ما يربط قلبه بأطفال اليوم، ورجال الغد:

والـكـلُّ عنـدي أثـير
يحـتـلُّ أغـلى مكـان

وهو يريد لهم خَطَّاً ايمانياً قويماً، ويرجو لهم وجهةً إسلامية صافية، حتى وجدْنا فؤادَه دائماً:

مع الـبـراعـم يتـلو
ترتـيلة الـقـرآن

وَمِنْ جديد شاعرنا أنه نظم في الشعر الرمزي، فقصيدتُه «قابيل»[1] التي أوَّلها:

قابـيلُ مزَّقْـتَ الـحشـا وذَبَحْتَني
ومَضَيْتَ تَلْعقُ في الـدماء وتَشْربُ
وتـصـيحُ أنَّـكَ مخلصٌ لقضيَّتي
والغـاصبُ المحتـلُّ عنـدك أقرب

إلَّا أنَّ معانيه ظلَّت واضحة، ولم يفعل كما فعل بعض شعرائنا، الذين اتخذوا الرمزَ سبيلاً لِصَوْغ طلاسم، يخرجُ القارىءُ مِنْ قراءتها كما دخل، حتى أنَّ ناظميها أنْفُسَهم لا يدرون ماذا يقولون، ساروا في ركاب غيرهم، دون استيعاب وفَهْم، فبدا نتاجُهم يكتنفُه ضبابٌ كثيف، وبالتالي بدوا عاجزين عن إفْهام القارئين. صنيعُ شاعرِنا ليس كصنيع أولئك، والقارىءُ لقصيدته سالفة الذِكْر، يحسُّ أوَّلها بإبْهام، حتى إذا ما تابَع القراءة أحسَّ بالمعنى واضحاً، تفسِّر أبياتُها بعضَها بعضاً، وذلك ما أكسب أسلوبَه بلاغةً وفخامة، ذلك أنَّ

(١) ص٨٤.

الشيء إذا جاء مبهماً أوَّل الأمر، ثم فُسِّر، أفادَهُ ذلكَ بلاغةً لا تَخْفى، فحين يطرقُ السمعَ فإنَّ السامع له يذهب في إبهامه كلَّ مَذْهب، ولهذا الأُسلوب مثيلٌ في كتاب الله الخالد، كقوله عزَّ مِنْ قائل: ﴿**وقضينا إليه ذلك الأمر**﴾ ثم فسَّره سبحانه بأنْ قال: ﴿**أنَّ دابر هؤلاء مقطوع مصبحين**﴾[1]، وكذلك الحال في قوله سبحانه ﴿**إنَّ الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما**﴾، **ثمَّ فسَّره سبحانه ﴿بعوضة فما فوقها. . .﴾**[2]، وهذا ما يوقع السامع في حيرةٍ وتفكُّرٍ، واستعظام لِمَا قرعَ سمعَه، أذكُرُ أنني حين قرأْتُ عنوان قصيدة شاعرنا «قابيل»، وقَعْتُ فعلاً في حيرة، وذهبْتُ كلَّ مذهب، وتساءَلْتُ في نفسي: مَنْ قابيلُ هذا؟ وأيُّ قابيل؟ أوَ عندنا قابيل جديد؟ أهو قابيلُ قاتلُ هابيل؟ أهو صاحب أول جريمة على وجه الأرض من أجل امرأة؟ ولكني حين تابَعْتُ القراءة فهمْت وفهمْت، وتألَّمْتُ، ومثلُ هذا أشارَ إليه كذلك العلوي في كتابه الشهير «الطراز».

---

(١) الحجر ٦٦.
(٢) البقرة ٢٦.

obeikandl.com

مَسْبوقٌ إلى مِثْله

الشعر ـ كما سبق أنْ قلنا ـ سلسلةٌ متصلةُ الحلقات، حلقتُه الأولى بدأتْ يوم هَلْهَلَ «المهلهل» الشعر كما قالوا، وربَّما قَبْلَه، وتتابَعَتْ مِنْ ثَمَّ الحلقات، حتى وقتنا هذا، كلٌّ يضيف، وكلٌّ يجري تحسيناً أو تشذيباً، كلٌّ يطوِّر، أو ينمِّق، وحتى بدا شعرُنا العربيُّ متكاملاً متناسقاً وناضجاً، وإذا كان عنترة ـ الشاعر الجاهلي ـ قال: «هل غادر الشعراء من متردِّم؟»، فما بالُك بسلسلة الشعراء الذين توالوا، من زمن عنترة حتى زماننا هذا؟، هل يُعْقَل أنَّ كلَّ شاعرٍ يأتي بجديد، ولا يأتي بغير الجديد!، وهل خيالُ كلِّ شاعرٍ، يسلك ضروباً لم تهتد إليها أخيلةُ أسْلافه؟ هل كلُّ شاعرٍ «يكتشف» دنيا من الشعر «جديدة» كلَّ الجدَّة، ولم «يكتشفْها» سابقوه؟ أيهجرُ الشاعر كلَّ تعبيرٍ استخدمه غيرُه؟ وهل تعبيرات أدبنا لا تنفد أبداً؟ هل الصور الشعرية لا تنتهي البتَّة؟ ألا يفكِّر شاعرُنا كما فكَّر غيرُه؟ ألا يمكن أنْ تجود قريحتُه بمعانٍ اهْتَدَتْ إليها قرائحُ غَيْره؟ أَلا يجوزُ أنْ يستخدم شاعرٌ أداةً استَخْدَمَها غيرُه قبله؟ ألا يجوز أنْ تكون «دنيا» الشعر، التي هام بها، هي ذاتها التي هام بها سواه؟ ألا يمكنُ أنْ يتطابقَ تفكيرُهُ وتفكيرُ غيره؟ وتتواءَمَ معانيه مع معانيهم؟ تساؤلات لا حَصْرَ لها، هي لا بدَّ خاطرةٌ على بالِ كلِّ مَنْ حاول دراسة ظاهرةِ التجديد والاحتذاء، التي نحن بصددها.

إنَّه ما من مُتَّزِنٍ معتدلٍ في فكره ورأيه، بمستطيع أنْ ينكر أنَّ للشعر طريقاً يسلكها الشاعر، وأنه لا مناص للشاعر ـ ومنذ وُلد الشعر العربي وحتى أيَّامنا هذه ـ من أن يسلك تلك الطريق لا محالة، وإمكانيَّةُ وُقوع عَيْن الشاعر المتأخر، مكانَ وقوع عين الشاعر المتقدم في التاريخ قائمة لا محالة أيضاً، هذا مِنْ جانب، ومن جانبٍ آخر، فمعلوم أنَّ الشاعر الحديث، لا غنى له عَنْ أنْ يطَّلع على الشعر العربي، قديمِه وحديثِه، ليهذِّب الملكة، ويهتدي إلى ضروبٍ شعرية جميلة، جادت بها قرائحُ غيره، فيطَّلع على ما أبدعَتْهُ أخيلتهُم، ويستفيد من صورهم، فينمِّي موهبتَه ويصقلُها، فيتابع السير باطمئنان، فإذا ما نظم شعرَه، عَلِقَتْ بذهنه أشياءُ من صُوَرهم، وأخيلَتهم، وتعبيراتهم وموسيقاهم

وأوزانهم، فيخلطُها بشعره، ويمتزج شيؤُه بشيء غيرِه، وما لَه بما لغيره، ومن هنا، وجدْنا شعراءنا ينظمون شعراً سُبقُوا إلى مثله، ومنهم شاعرنا العظم.

هذه أبياته التي قال فيها:

القـدسُ والـلطرون والمنتـدى
وبـلبـلٌ في روضـةٍ غرَّدا
وغـابـةُ الـزيتـون يا حسنهـا
تضـوَّعـتْ زهـراً وطـابـت ندى
في ظلِّهـا يحنـو على نايه
فتىً كريم الكفِّ عذبُ الصـدى
مَن حطَّم الـنـايَ على ثغـره
وشـرَّد الـسـامـع والـمـنـشـدا
والـمسجـد الأقصى ومحـرابـه
يحـنـو علينـا ركَّعـاً سجَّـدا
قبـابُـه كانـت تنـاجي العلى
وأرضُـهُ كانـت منـار الـهـدى
تحـدِّثُ الأكـوانَ عن زحـفنـا
وقـد بسـطْنـا للمـعـالـي يدا
وهـامـةُ الـفـاروق مرفـوعـة
أكْـرِمْ بها في قدسِنا مَشهـدا
يُعـلي لواء الـعـدلِ تكـبـيرُهُ
ويصـنـع الأمـجـادَ والـسؤددا
يا قدسُ إنْ طالـتْ بنـا فرقـة
فسيفُنـا يا قدسُ لن يُغمـدا[1]

وكذلك أبياته في «قلعة الربض»[2]:

---

(١) ص٢٠.
(٢) ص١١١.

تطلُّ على «عجلون» نسراً مجنَّحاً
يذكِّـرنـا بالـفـتـح عزَّاً وسـؤددا
وفينـا صلاح الدين سيفاً ومصحفاً
يذيق الأعادي حين يلقاهم الردى
وفي «الربض» الشمَّاء صوتٌ يهزّني
يذكِّـرني بالفتـح إذ يرجع الصدى
تنـادَوْا وعـزَّ الـدين فيهم مظفّـر
أَبَـى سَيْفُـه أن يستكين ويُغمـدا
يطاردُنـا البـاغـون في عقـر دارنـا
وكانت لنا الأرض الفسيحة مسجدا

جميلة حقاً جميلة، ومؤثِّرة ومثيرة، يحسُّ قارئها أنَّ قلب ناظمها يتكلَّم، هي قطرات دم، وزفرات ألم، وشرر تطاير علَّه يبعث حياة، ومع هذا أرى فيه موسيقى أبيات لعلي محمود طه، ونَفَسَه، يقول فيها:

أخي جاوز الـظالمـون المـدى
فحـقَّ الـجـهـادُ وحـقَّ الـفـدا
أنـتـركهم يغصبـون العـروبـة
مجـدَ الأبـوَّة والـسـؤددا
ولـيسـوا بغـير صليل السـيوف
يجـيبـون صَوْتـاً لنـا أو صدى
فجـرِّدْ حُسـامـك من غِمْـده
فليسَ له بعـدُ أنْ يُغْـمـدا
أخـي إنْ جرى في ثراهـا دمـي
وأطـبـقْـتُ فوق ثراهـا الـيدا
فقـبِّـلْ شهـيداً على أرضـهـا
دعـا باسمهـا الله واستشهـدا

أخــي قُـم إلـى قِبْـلَةَ الـمشــرِقيـنِ
لنــحـمـي الكنيســة والمسجــدا

وهي أبيات مشهورة، لَطالَما ردَّدَتْها اذاعاتُنا العربية «المجيدة!» بصوت «المطرب!» الذي لحَّن نشيد الاستسلام محمد عبد الوهاب، وخاصة في المناسبات الوطنية، وما أكثرها!!، وحين «الاعلان!» عن «تمثيلية» سمُّوها زوراً. . . معركة، وهذه قصيدة شاعرنا «رسالة. . . من القدس»[1]، قال فيها:

في ساحـة المسجد المحزون
شيخ على وجـهــه الأيام ترتـسم
لمن أبثُّ شكـاتي والشفـاه غدت
خرساءَ ليس لها في الحادثات فم؟
من ذا الذي هدَّ منِّي ساعداً ويداً
هل ضاع دربي أم زلَّت بي القدم؟
لقـد جَرَعْنـا كؤوسَ الـذلِّ مترعةً
والقدس في العار، والمحراب والحرم

أتــطربــون لآهــات نصعِّــدهـا
وينزف الجرح و«القطعان» تبتسم؟
في خيمــة عصف الـزمـان بهـا
لمحت بعض بني قومي وقد سلموا
فأسْلِمــوا لنيوب المــوت ضاريةً
الـبــردُ والجــوع والإذلال والألـم
إلـى متـى نرتـضـي ذلًّا يؤرِّقـنــا
فلْينـطق السيفُ وليهتفْ بنا القلم

ومثلُها مقطوعتُه «نبضات القلوب»[2] التي قال فيها:

---

(١) ص٦٦.
(٢) ص١٨١.

الموت في نبضات القلب يرصدنا
كمـا يزمجـر في أنفـاسنـا العـدم
ما بين طفلٍ كزهر الروض نفقده
وبـين شيخٍ عجــوز هدَّه الـسقم
نصحو على خطوات الموت يحصدنا
وليس ينفــع بعـد الحفـرة النـدم

على ما في الأولى من عاطفة حيَّة، وإحساس رقيق مهذَّب، ونزعة دينية جليَّة تستحق التقدير، وتجعل القارىء يحسُّ بأمل، ومع ما تنمُّ عنه الثانية من ايمان بحتمية القدر الذي لا مفرَّ منه، فإنَّ روح أبيات القصيدتين، الأولى والثانية، ونَفَسِهما، ونبرتهما، وموسيقاهما، سبقه إلى مثلها المتنبي في قصيدته الشهيرة حين قال معاتباً سيف الدولة الحمداني[1]:

واحــرَّ قلبــاه ممَّــن قلبُــه شبـم
ومن بجسمي وحـالي عنـده سقم

إلى أن قال:

وجــاهـل مدّه في جهله ضحكي
حتــى أتــتــه يدٌ فرَّاســة وفــم
إذا نظرْت نيوب الـليث باسـمـةً
فلا تظنَّــن أنَّ الــليث يبــتـسـم
ومهجـة مهجتي من همِّ صاحبهـا
أدركْــتُــهــا بجــوادٍ ظهــره حرم
رجلاه في الركض رِجْلٌ واليدان يدٌ
وفـعـلُه ما تريد الـكـفُّ والقــدم
فالـخـيلُ والليلُ والبيداءُ تعــرفني
والضربُ والطعنُ والقرطاس والقلم

(١) شرح ديوان المتنبي جـ٤ ص٨٠.

إنْ كان سرَّكُمُ ما قال حاسـدُنـا
فمـا لجـرحٍ إذا أرضـاكم ألم

إلى أن قال:

يا من يعـزُّ علينـا أن نفـارقـهم
وجـداننـا كلُّ شيءٍ بعـدكم عدم
لئـن تركن ضُميْراً[1] عن ميامننـا
لَيَحْـدُثَـنَّ لمـن ودَّعْـتـهـم ندم

كذلك فإنَّ المعنى الوارد في أبيات شاعرنا العظم الثانية، والمتعلِّقة بحتمية القَدَر، سَبَقَهُ إلى مِثْلِهِ شوقي حين قال في رثاء مصطفى كامل[2]:

دقَّـات قلْبِ الـمـرءِ قائـلةٌ له
إنَّ الـحـياةَ دقـائـقٌ وثـوان
فاصبرْ على نُعْمى الحياة وبؤسِها
نعـمـى الـحياة وبـؤسُهـا سيَّان

وهي قصيدة جميلة مطلعها:

الـمـشـرقـان عليك ينـتـحبـان
قاصـيهـمـا في مأتـمٍ والـداني

كذلك قصيدة شاعرنا العظم: «ذكريات المجد والعار... في أرض الأبرار»[3] التي جاء فيها:

أدِرْ كؤوسَ الهُـدى بالنـور تسقينا
ونـحٌ كأس الهـوى خمراً وغسلينا

---

(١) جبل على طريق دمشق مصر.
(٢) الشوقيات جـ٣ ص١٥٧.
(٣) ص٦٩.

فالقدس في القيد ترنو للخلاص وما
تلْقى سوى الذلِّ من أيدي أعادينا
لقـد ذكرتُ لدى الأقصى تهجُّدَنا
ولـيلةَ الـقــدْر نحييهــا فتحيينــا
وقبْلَة المصـطفى الأولى وصخرَتَه
وومضــةَ النــورِ في دنْيا أمـانينـا

ومثلُها قصيدته «إنِّي أخاف الهوى!»[1] التي قال فيها:

يا بلبــلاً حلَّ في أفْنــاءِ وادينــا
يردِّدُ الشعــرَ ألحــانــاً بنــادينــا
ويبعثُ الشــوقَ في قلبٍ يعـذِّبـه
صوتٌ من المسجد الأقصى ينادينا
يا قلبُ ما لك لا تهـفــو لغــانيةٍ
ولا تمــيلُ لغــرِّيد ينــاجــينــا؟
قد جئتَ يا بلبلَ الألحان في زمنٍ
ما عاد فيه سوى «الغرِّيد» يشجينا
ولست أرضى بديلاً عن محـاسنه
ولا عيونٌ سوى عينــيه تُرضــينــا
يرتِّـل اللَّحن عذبـاً في مسـامعنـا
ويمــلأ الــروض أطياراً تنـاغينـا
إشـراقـةُ العمـر في عينيه تسعدنا
وصــدُّه إن قســا والله يشـقـينـا
إنِّي أخاف الهوى في غير موضعه
وأرفض اللهــو زقُّــومــاً وغسلينـا
لو كان لي ألف قلبٍ ما عشقْتُ بها
غير الحبيب الــذي أحيا أمـانينـا

---

(١) ص٢٣٤ و ٢٣٥.

لكَ التحية منِّي عفَّةً وتُقىً
ما دمت لله والتقوى تحيينا

فسبقه إلى مثْلهما لحناً ونَفَساً ووزناً ابن زيدون في قصيدة له مشهورة ومحفوظة متداولة، نظمها في ولَّادة بنت المستكفي[1]:

أضحى التنائي بديلاً عن تدانينا
ونـاب عن طيب لُقْيانا تجافينا
بنتم وبنَّا فما ابتلَّتْ جوانحنا
شوقاً إليكم ولا جفَّت مآقينا
نكاد حين تناجيكم ضمائرنا
يقضي علينا الأسى لولا تأسِّينا

كذلك قصيدته «مع العيد»[2] التي مطلعها:

العيد أقبلَ والذكرى تؤرِّقني
وليس في العيد غير الحزن والسقم
ما عاد في مقلتي طيف يداعبني
غير الأحبة في «الأقصى» وفي الحرم

سبقه إلى مِثْلها شوقي:

ريم على القاع بين البان والعلم
أحلَّ سفك دمي في الأشهر الحرم[3]

كذلك قوله في قصيدته «مُنى القلب»[4]:

إلهي إنْ كانت ذنوبي كثيرةً
فَعَفْوُكَ يا الله للذنبِ أَوْسَعُ

(١) ديوان ابن زيدون ص٩١.
(٢) ص٧٩.
(٣) الشوقيات جـ١ ص١٩٠.
(٤) ص١٧٧.

سبقه إلى معناه أبو نُواس:

يا ربِّ إنْ عظُمت ذنــوبي كَثْــرَةً
فَلَقَــدْ عَلِمْتُ بأنَّ عفــوك أعـظم
إنْ كان لا يرجــوك إلَّا مؤمــن
فبــمــن يلوذ ويستــجير المجــرم

أمَّا قصيدته «آيات»[1] التي يقول فيها:

في رعشــة الجفن تسبيح وايمــانُ
في خفقة القلب إحساسٌ ووجدان
في صنعــة الكــون توحيدٌ لصانعه
في ومضــة العقــل آيات وبــرهــان
في همســة الثغــر إبــداعٌ لخــالقه
في بسمــة الــطفل للخلَّاق عنوان
في دورة الفلك الــدوَّار منتــظمــاً
للعــقــل والقلب إفصــاحٌ وتبيان
والمنكــرون لنــور العقل لو عقلوا
لولا «المهيمن» ما كنَّــا ولا كانوا!

والتي تشعُّ بآياتٍ لله سبحانَهُ لا تُجْحَد، وبقدرةِ الخلَّاق العظيم تبارَكَتْ أسماؤه، أرى فيها جوَّ أبيات ابن دراج ولَحْنَها:

فلا مؤنسٌ إلَّا شهــيقٌ وزفــرةٌ
ولا مسعــدٌ إلَّا دمــوع وأجْفــانُ
ومــا كان ذاك الــبــيْنُ بيْنَ أحبَّــةٍ
ولــكــنْ قلوبٌ فارقتــهــنَّ أبْــدانُ
فيا عجبــاً للصبــر منَّــا كأنَّنــا
لهُم غير مَنْ كنَّا وهم غيرُ مَنْ كانوا

(١) ص ١٨٠.

ونغم أبياتٍ مشهورة لأبي البقاء الرندي، يقول فيها:

لكــلِّ شيءٍ إذا ما تمَّ نقــصــانُ
فلا يُغــرَّ بطيب الـعـيش إنســان
هي الأمــور كمـا شاهَـدْتَهـا دُوَلٌ
مَنْ سرَّهُ زمــنٌ ساءَتْــهُ أزمــان

أمَّا قولُه من قصيدة في رثاء المرحوم عليّ، شقيقه الأكبر، مخاطباً عينيه: «فلْتجودا بالدمع يا مقلتيًا»[1] فقد جاء بمثله مِنْ قبْله ابنُ الرومي، الشاعر العباسي، حين قال من قصيدة له في رثاء ولده الأوسط محمد مخاطباً عينيه كذلك:

«فــجــودا فقــد أودى نظيرُكــمــا عنــدي»[2]

أمَّا رباعيته «فتاة القدس»[3] والتي قال فيها:

حدَّثَــتْــنــي حُرَّةٌ في الـمـجـلس
بحــديث الـطهــر عفِّ النَفَسِ
تســألُ الــقــادة عَنْ أيَّامــنـا
عنـد يافـا: عنـد «بـاقي» القدس
في غدٍ يُشـرق فجـري ضاحكـاً
ويذيبُ الـنـورُ لَيْلَ الـغَـلَس
إنْ لقــيتــي في عرينــي أســداً
فاطـمئـنِّي لخــلاص «المكنس»

فمسبوق إلى مثلها، كما في الموشحة التي منها:

حين كزَّ الأنسُ شيئــاً أو كمــا
هجم الصبــحُ هجــومَ الحــرس

---

(١) ص٢٢٤.
(٢) ديوان ابن الرومي جـ٢ ص٦٢٤.
(٣) ص٢٦١.

غارت الـشـهـبُ بنـا أو ربَّـمـا
أثَّـرتْ فينـا عيونُ الـنـرجس

كذلك رباعيته «مجرم»[1] التي قالها في ثريٍّ من ديارنا «تزوَّج راقصة زواجاً عرفيًّا، ما لبث أن فسخَتْهُ اللعوبُ بعد أسبوع. . . ، كان صداقُها عشرين ألف دينار»، والتي قال فيها:

أتـرعَ المـاجنُ كأْساً من دمـانـا
وسـقـاهـا لبـغـيٍّ أرجـوانـا
ليلة حمـراء ما أتْـعَـسَـهـا
مُلِئَـتْ ذُلًّا رهـيبـاً وهـوانـا
وصـمـة الـعـار على هامـاتنـا
أنْ نرى في الموكب الدامي جبانا
واذا الـدار بنـوهـا فرَّطـوا
لا تلومـوا الـذئب أن يرعى حمانا

سبقه إلى مثلها الشاعر العربي الخوري:

سائـل العلياء عنَّـا والـزَّمـانـا
هل خفـرنـا ذمَّـةً مذ عرفـانـا
الـمـروءات الـتـي عاشـت بنـا
لم تزل تجـري سعيراً في دمـانـا
يا فلسـطين الـتـي كدْنـا لمـا
كابـدتْـه من أسىً ننسى أسـانـا
نحن يا أخت على العهـد الـذي
قد رَضِعْنـاه من المهـد كلانـا

وأحياناً وجدْنا شاعرَنا فعلَ ما فعلَ الشعراءُ الأقدمون، بدأ قصيدته بما يشبه النسيب، فوصْفٌ لوسيلةِ الانتقالِ والسفر، ومن ثمَّ التحدُّث عن المقصود أو

(١) ص٢٦٤.

الممدوح، هذا ما فعله في قصيدته «تحية للجزائر!»[1]، بدأها بما يشبه النسيب:

يا ناعس الـطرف في باريس أرَّقه
زيفُ الـحضـارة مزهـوّاً بألـوان

ثمَّ تحدَّث عن وسيلة سفره، الطائرة التي أقلَّتْه إلى الجزائر:

يا قائـد «الـطائر الميمون» إنَّ لنا
شوقـاً لإخـواننـا أبـطال وهـران
فَطِرْ بنـا يا بسـاط الـريح منـطلقاً
وسـابق الـطير من نسـرٍ وعقبـان

ثم جاء بما يمكن أن يُعدَّ «حُسْن تخلُّص»:

حتـى تحطَّ بنـا في ظلِّ وارفـةٍ
ثمارُها الحبُّ تسقى فيض وجدان

ثم تحدَّث عن المقصود، أو الممدوح، أهل الجزائر:

تلك الجـزائر عاشت في جوانحنا
وحيثمـا كنت فيهـا الحب يلقاني
جزائـر المجـد والايمـان معـذرةً
إنْ كنتُ قصَّرْتُ في شعري وتبياني

وقريب من هذا قصيدته «حمل وادع وليث هصور»[2] التي قالها عقب زيارة له لليمن:

عالـمٌ سابـحٌ وكـون يدور
وسـحـاب يُطوى وأرض تمـور

---

(١) ص١١٦.
(٢) ص١٢٤.

والفضاءُ الرحبُ الذي يَحْتَوينا
كالدمى: أيّنا كبير؟ صغير!
حَطَّ بي طائر الصناعة رفقاً
بعد أنْ ضجَّ في السماء هدير
فلقيت الأحباب في يمن الخير
وفي أفقه يفوح العبير

ومعلوم أن شعراء العرب ـ ومنذ أقدم عصورهم التاريخية ـ كانوا يحافظون على نظام القصيدة، كانوا يبدأون بالنسيب، ومِن ثَمَّ يتحدثون عن وسيلة انتقالهم، وكانت في الغالب البعير، ويصفون ما شاهدوا في سبيلهم، وما تكبَّدوا من مشاقَّ، وأخيراً يتحدَّثون عن ممدوحهم أو مقصودهم. مثلُ هذا وَقَعَ فيه كثيرٌ من شعرائنا، حتى لم يسلم منه شاعر كبير كشوقي، هكذا فعل في قصيدته في مشروع ملنر، الذي وضعته بريطانيا لتحديد علاقتها بمصر ابَّان الاحتلال، فبدأ قصيدته قائلاً:

اثْنِ عنان القلب واسلم به
من ربرب الرمل ومن سربه[1]

وهكذا فعل الشيخ محمد عبد المطَّلب في أسلوبه وخياله.

من جميل صنيع شاعرنا العظم الذي يُقَدَّر، أنه أبى أن يتخذ من أدباء شرق أو غرب، إماماً يقتدي به في أدبه، كما فعل نفر غير قليل من أدبائنا هذه الأيام، الذين وجدناهم يسيرون في ركاب هؤلاء أو أولئك، يقلِّدونهم في كلِّ شيء، في الاتِّجاه الأدبي، في الأسلوب، في الاتجاه الفكري، وحتى في مناحي الحياة المختلفة، رضوا أن يكونوا تلاميذ لهم، وجلبوا ذلك كلَّه، وأقحموه في أدبنا إقحاماً، على ما بين أدبنا وأدبهم من بون شاسع، وعلى ما بين تقاليدنا وتقاليدهم من تناقض، وما بين ديننا ودينهم من اختلاف، فرأينا ما بَدَا في صنوف أدبهم من «اجهاض»، وبَدا أدبهم غير متكامل النمو، وبدت فيه علامات سقم.

(١) الشوقيات جـ١ ص٧٢.

شاعرُنا ـ جزاهُ الله خَيْراً ـ لم نجده يقلِّد كولردج، وورد زورث، وهازلت، و ت. س. إليوت، وريتشاردز، وجوته، وأضرابهم، ممَّن ولع بهم أدباء بيننا كثيرون، ومنذ مطالع القرن العشرين، فلم يجذبْه سُخْفُهم وخبثُهم كلُّه، وظلَّ إسلاميَّ الوجهة:

عمـريُّ الأمـجـاد غيرُ جزوع
فيه عزمٌ مِنْ خالـدٍ وأسـامـه
فشـرحـبـيل في دمـاه تلظَّى
ومـعـاذ ما زال يرعـى مقـامـه
ويزيد الـجـهـاد يزحف بالفتـح
ويُعْلي على المـدى أعـلامـه[1]

ظلَّ مثلُ هذا الهتاف صرخةً في آذان قلوب الشباب، علَّهم يلتفتون إلى أمجاد أجداد كرام، صنعوا للتاريخ بالدين والصلاح والجهاد صفحات خالدة، كان لهم شجاعة تهون أمامها شجاعةُ أُسود، وكان لهم عزمٌ يلين الحديد ولا يلين، ظلَّ هذا الهتافُ صرخةً في آذان قلوب فتيات الاسلام، فلا يقتفين آثار «مدام كوري» أو «آني جارفيس» التي «علَّمَتْ» جامعتَنا العربية «العتيدة!» كيف تقدِّر الأمهات، فجعلَتْ لهنَّ عيداً في كلِّ عام!!، وجدْنا شاعرَنا ـ جزاه الله الغرفةَ بما صنع ـ ينادي الحائرات من نساء الأمة:

ونـداء للحـائـرات ضياعـاً
أين خنـسـاؤنـا وأين سمـية؟
ورمـاحٌ في كفِّ خولـة تزهـو
وسـيوف في راحـة الـمـازنـية؟
في المحيط اللجيِّ قُدْنـا سفيناً
وعـلى الأرض كم بعـثْـنـا سريَّة
ننشـر العـدلَ والـرخـاء ونبني
بأكـفِّ الهـدى صروحـاً عليَّة[2]

(١) ص٢٦.
(٢) ص٣٥.

نعم، ناداهن أنْ يقلِّدن الخنساء وسمية وخولة ونسيبة، اللواتي صنعْن ما يشرِّف، ناداهنَّ أن ينتهين عن احتذاء ساقطات باريس، وأن يقتفين آثار بطلات بحقٍّ، ربَّاهُنَّ إسلام، وهذَّبهنَّ ايمان، فكنَّ قدوةً لنساء ولرجال، ناداهنَّ ألَّا يقلِّدن ضائعات فارغات، ربَّتْهنَّ خلاعة العصر، ومجونُ الزمان الذي نعيش.

وفوق هذا وذاك، وَجَدْنا شاعرَنا يتخيَّر من اللفظ فصيحَه سهلَه، يصوغُه بقالبٍ أدبيٍّ جميل، لا يكتنفه ضباب، ولم يصنع صنيع غيره، أرادوا شهرةً - ومن أقصر سبيل -، فأتوا بأدب كطلاسم، لم يفعل كأولئك الذين تحرُّوا ألفاظاً جزلة ضخمة مهجورة انقضى زمنُها، فوجدْنا القارىء العاديَّ يحار، يقرأ وكأنه يقرأ أدباً فارسيًّاً، الحروف عربية، ولكنَّ المعنى غير معنى العربية، فيخرج القارىء **«المسكين!» كما دخل، يداه فارغتان.**

ربَّما . . . نبوة صارم، أو كبوة جواد

قال شاعر عربيٌّ «حسنٌ في كلِّ عَيْنٍ مَنْ تودُّ»، وقال آخر «غطِّى هواك وما أَلْقى على بَصَري»، فعلى ما لشاعرنا من حبٍّ في قلبي، لم أحاولْ إخفاءَه، ومع إعجابي بشاعريته المنطلقة الفذَّة، ومع أنَّ الآمال معقودة على رجالٍ، شاعرُنا ـ ولا أزكِّيه على الله ـ منهم، ومع ايماني أنَّ شاعرنا، يعلم أنَّ اختلاف الأمزجة والميول والأهواء، من العلامات الدالة بجلاء على قدرة الله وعظمته، فإنَّ ذلك كلَّه لن يجعلني أُحجم أن أقول عن قولٍ قاله: لا يعجبني، الشاعر شيء وشعرُهُ شيء آخر، هذه حقيقة كم وَدِدْت أنْ يفهمها شعراءُ محدثون كثيرون، رأيتُهم إذا قيل لأحدهم: شعرُك فيه رداءَة، أو فيه عيب، فكأنَّما قيل له: أنت رديء، أو أنت فيك عيب، فيقوم ويقعد، ويثور ويتوعَّد، وودَّ لو أقام الدنيا وأقعدها من «هول!» ما سمع، شتَّان ما بين أن يكون الشاعر رديئاً، وبين أن يكون في شعره رداءة، أو هفوات، أو هنات لغوية، أو عروضية، أو منطقية، شتَّان شتَّان بين أن يكون الجمل أعرج، وبين أن يكون الجمَّال نفسُه أعرج، والناقد حين ينبِّه أديباً على أمرٍ من أمور أدبه، فما ذلك مردُّه إلى كُرْهٍ، أو بُغْض، أو حِقْد، أو حبِّ تشهير، ذلك إذا كانت المآخذ في «الصنعة»، وفي «طبيعة المهنة»، أمَّا حين يكون الأدب إلحاداً، أو شكَّاً، أو بذاءة، فأمرُه مختلف، وعندها يكون الأدبُ وصاحبُه رديئين، وعندها تكون رداءةُ الأدب من رداءة الأديب، فكما قالوا: «كلُّ إناء ينضح بما فيه». تنبيهُ الأديب أمرٌ محبَّب، يدخلُ في دائرة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ويدخل في دائرة الإرشاد والنصح، وهل الدين إلَّا النصيحة؟ ويكون التنبيه عندها دليل غيرة وحبٍّ، ودليل رغبةٍ في بقاء الصالح، وحصول الأصلح.

انطلاقاً من هذا الفهم، الذي أظنُّه واضحاً، لم ترني أخفيتُ شيئاً دار في خَلَدي، حولَ لفظٍ، أو تعبيرٍ، جاء به شاعرُنا العظم، بل أراني كنت أكثر جرأة في نقد شِعْره مِنْ نقد شِعر غيره، وإنْ كان ربُّنا، تبارَكَتْ أسماؤه، أثنى على الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش، إلَّا اللمم، فلربما كان لشاعرنا شيء من

هذا اللمم، ما كتمته، وإن كان لمماً شعرياً، لا دينياً، ولا سلوكياً، وإنْ كان لمماً تعبيرياً لا منهجياً، وإنْ كان لمماً، كما رأت عيني، لا عين غيري بالضرورة، فلكلِّ عينٍ نظرة، كما قالوا، ورأيتني لا أبدأ من حيث بدأ شعره في ديوانه، وانما أبدأ مسارعاً، ومن حيث كتب مقدمته، فلقد وَجَدْتُه كَتَبَ عنوانَه في نهايتها هكذا:

عمَّان ـ الأردن

ص.ب ١٨٥٨

وأظنُّ، أنَّ مثل هذا يقع فيه كثير من الناس هذه الأيام، فصندوق البريد أصغر من عمَّان، وعمَّان أصغر من الأردن، وأنَّ المناسب أن يكتب هكذا:

ص.ب ١٨٥٨

عمَّان ـ الأردن

الصغير، فالكبير، فالأكبر، وهكذا. هكذا أرى.

كذلك على مَنْ يراسلون، أن يكتبوا عناوينهم، ذاكرين البيت أولاً، ورقمه إنْ كان له رقم، فالشارع، فالحي، فالبلدة، فالدولة، وهكذا.

كذلك قولهُ:

إنْ طأطأ الباغي الجبين
فأنت وضَّاء الجبين[1]

فيه ارتكب عيباً من عيوب القافية يدعى «الايطاء» وهو في الشعر إعادة القافية، مأخوذ من قولنا وطئتُ الشيء، وأصلهُ الموافقة، وهو رديء حين يكون في بيتين متجاورين، أو بينهما بيت أو اثنان أو ثلاثة، فكيف به إذا كان في بيت واحد!.

كذلك استعمالُ لفظ «الكلِّ» ومرتين في قوله:

---

(١) ص٩٧.

لا تسـأل الـجـزَّار عن فِعْـله
فالكـلُّ يحني رأسـه في خضـوع
والـكـلُّ يرضـى سوطـه كلَّمـا
يداعب السـوطُ هزيل الضلوع[1]

ولفظتا كلّ وبعض، لا تدخل عليهما أل التعريف، لأنهما موغلتان في الإبهام، وإن كان بعض المحدثين يستعملهما معرَّفتين. «كلّ»، ومثلُها «جميع» و«عامَّة»، توكيدات معنوية، يؤكَّد بها ما كان ذا أجزاء، يصحُّ وقوع بعضها، ولا بدَّ من اضافتها إلى ضمير يطابق المؤكَّد، كأنْ نقول: جاء الوفدُ كلُّه، جاءت القبيلة جميعُها، جاء الناس عامَّتهم، فلو قال شاعرُنا مثلاً: الناسُ كلُّهم يُحْنون رؤوسهم، والناس كلُّهم يرضون سوطه، لكان اجتنب هذا المأخذ. وآخذ على شاعرنا قولَه:

ربَّـاه كمْ أعـمـلْتُ فكـري
وغـرسْـتُ مِن نشـري وشِعْـري
أبـغـي جنىً حلواً فمـا عادتْ
يداي بغـير مُرِّ[2]

فماذا كان شاعرُنا ينتظر، حين لا يكون القرآنُ حاكماً؟ أينتظرُ أن يكافأ؟ أوَ كان يأمل أن يُجزى الجزاء الحسن؟ وهل فعلَ، وأعملَ فِكْرَه، وغَرَسَ، أكثرَ ممَّا فعل سيدُنا عليه الصلاةُ والسلام؟ فماذا لقي من خصومه؟ بل ماذا لقي من قومه؟ ماذا نالَه من أهل مكة بلده؟ وكيف كادوا له، ومكروا به؟ وكيف تآمروا عليه؟ ألم يحاولوا قتْلَه؟ ألم يرجموه بحجارة؟ ألم يؤذوه؟ أم يتهموه بجنون؟ وهل زاده ذلك كلُّه غير ايمانٍ وصبرٍ واحتساب!!!، ألم يقُلْ مناجياً ربَّه سبحانه، بعد ذلك كلّه: «إنْ لَمْ يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي؟»، وأخيراً: أليس الرسول عليه السلام قدوتَنا حتى نلقى الله!!، أو نسي شاعرُنا ما عند الله!!، إنْ كان جَنى من «متفرنجين» مُرَّاً، فوالله إنني ـ وكما أحْسَسْت ـ، لأشْهَدُ أنَّه لدى مَنْ هداهم الله

(١) ص١٠٢.
(٢) ص١٦٥ و ١٦٦.

في أعْيُن القلوب، وإنِّي ممَّن يغبطونه، ولو أحلَّ الله حَسَدَه لَحَسَدْتُه، عِلْمُه يُنْتَفَع به، لَن ينقطع حتى بعد أن يودِّع دنياه هذه، فيلقى ربَّه مكافحاً بكلمته الشريفة الجريئة، وشِعْرُه ونثْرُه شاهدان له لا عليه، كما هو حال كثيرين كثيرين، فَلْيَعْمَلْ ولْيصمدْ، ومعاذ الله أنْ يُضيع أجرَ العاملين.

وأعترض على قوله:

نحن لا نرْضى على طول المدى
أن يكـون النـذْلُ فينـا مسلمـا[1]

يقول: «لا نرضى أن يكون النذلُ فينا مسلماً» ويا ليته قال: «لا نرضى أن يكون المسلم فينا نذلاً»، فالنذل إذا أسلم إسلاماً حقاً، ذهبتْ نذالتُه وولَّتْ، فالاسلامُ يعصمُ من النذالة، ويحرِّر منها، الاسلام يجبُّ ما قبله، والعزَّة لله ولرسوله وللمؤمنين، وإذا ما أسْلَم العبدُ تلاشتْ نذالتُه، واندثَرَ جُبْنُه، وتلاشى خَوَرُه، وزالَ بُخلُه ولُؤمُه وغَدْرُه ومكرُه وهمزُه ولمزُه و...

هذا ما يجب أن يكون، لا ما هو كائن، باختصار، لن نرضى أن يكونَ المسلمُ فينا نذلاً، لكنْ نرضى أنْ يُسلم النذل فيكون النذلُ مسلماً، فبالاسلام تُمحى النذالة، فالاسلام والنذالة لا يتواءَمان ولا يتفقان البتَّة.

وآخذ عليه قوله مشيراً إلى «كريمة» الشاعر هشام العظم:

وأنَّ له درَّةً حُرَّةً
عروسُ النـهـار لهـا تُكْسَفُ[2]

فكريمة الشاعر هشام هذه «تُكسف» لمرآها الشمس!! أو لَيْسَتْ هذه مبالغة، يحسن بالشاعر اجتنابُها؟، وهل تُكْسَفُ الشمس لمرأى مخلوقٍ كائناً من كان؟ أو لَمْ يقل الرسول عليه السلام ما معناه: ما كانت الشمس لتكسف لموت بشر!!.

ومثل هذا أخذه النقادُ على شوقي حين قال:

---

(١) ص٢٦٨. (٢) ص٢٧٨.

انــظر إلــى الأقــمــار كيف تزولُ
وإلى وجــوه السعـدِ كيف تحـولُ

وحين قال في رثاء سعد زغلول:

شيَّعـوا الشمس ومـالـوا بضحـاها
وانحنى الشـرقُ عليهـا فبكـاها[1]

وأرفع يَدَيَّ الاثنتين «محتجًّا!» على قول أخي الشاعر:

دفقـة النور في ذرى البيت طافت
بعـد أنْ كان مظلم الركن معتم[2]

فشاعرنا يعلم بلا شك، أنَّ السليم لغةً أن نقول «معتماً»، وهي إنْ كانت تعدُّ ضرورة شعرية، فإنَّ الأجدر بالشاعر ألَّا يلجأ إليها، إذْ أنَّ كلمة «ضرورة»، نَفْسَها، يُفْهَمُ منها أنَّها «اضطرار» لا «رغبة»، ومعلوم كذلك أنَّ الشاعر الشاعر، الشعرُ في يديه كطينةٍ، كعجينة، يشكِّلها كما حلا لَهُ وطاب، فيصبُّها في أيِّ القوالب شاء، الشعر في يد الشاعر ـ كما قال شوقي ـ كقضيب لدنْ يطاوع اليد:

وكـالـقـضـيب الـلدْن قد
طاوَعَ في الـشـكـل الـيدا
يأخُـذُ ما عوَّدْتَـهُ
والـمـرءُ ما تعـوَّدا[3]

وأدباؤنا، وعلماؤنا، جديرون أن يكونوا حماةَ لغتنا وحرَّاسَها، وأمناءَها، وعمداءَها، الذائدين عن حماها، أمَّا أنْ يبيحوا لأنفسهم بتجاوز «الحدود»، وتخطِّي «الضوء الأحمر»، أمَّا أنْ يبيحوا لأنْفُسهم مالَها وعتادَها، فما ذلك بإنصاف، و﴿**تلك إذاً قسمة ضيزى**﴾[4].

---

(١) الشوقيات جـ٣ ص١١٦ و ١٧٤
(٢) ص١٤٤.
(٣) الشوقيات جـ٤ ص١٩٢.
(٤) النجم ٢٢.

هذه المآخذ لا تسيء إلى شاعرية شاعرنا ـ سدَّد اللهُ خطاه ـ، فما الشاعر إلَّا إنسان، قد يخطىء، وقد يصيب، من شِعره الحلو، لدى مَنْ استقام فهمُه وحَلا فمُه. ومُرٌّ لدى مَنْ كان غير ذلك، والشاعر يُبْرىءُ ويشجّ، يجبر ويكسر، يأسو ويجرح، يُداوي ويُدْوي، يُؤنس ويوحش، ويُحْلي ويُمِرُّ، نعم، من شعره ما طعمه عسل، ومنه ما طعمُه غيرُ ذلك، وكما قال الشاعر العربي:

ممـــقـــرٌ مرٌّ على أعـــدائـــه
وعـلى الأدنين حُلْوٌ كالعســـل

هي ملاحظات رأتْها عيني الضعيفة كما خَلَقها ربي، فلا عيني بمتفرِّدةٍ برؤية ما لا يَرى غيري، فلا أنا من اليمامة، ولا أعرف حتى زرقاءَها، وإنْ كانتْ عيونُ أناسٍ رأتْ سراباً، فظنَّتْهُ الماء، فلربَّما عيناي رأَتا ماءً، فظنَّتا أنه السراب، وسبحان الخلَّاق العظيم، لا يضلُّ ولا ينسى.

شاعريَّة منطلقة، وجهد لا يضيع

والآن، وبعد أن عايَشْنا شِعْرَهُ، زمناً ليس باليسير، أصبح جليًّاً أنه شاعرٌ ذو بصيرة مبصرة، وقريحة أخَّاذة، ولبٍّ متفتِّح، وعاطفة تأسر الألباب، أمَّا خيالُه فمتوقِّد، وأمَّا الشاعريَّة فمنطلقة مواتية، والشعر يتدفَّق عليه تدفُّق نَبْعٍ في سَفْح، فينساب رَقْراقاً لطيفاً منعشاً، لانَتْ له القوافي، فهو لا يكدُّ لها ذِهْناً، ولا يعصر فكراً، يطلُبُ الشِعْر فينقادُ له انْقِياداً، ها هو يَلْتقي ذاتَ مرَّةٍ بشاعرٍ مِنْ شعرائنا «الأحرار!» «التقدميين!» هو صالح جودت، يُلْقِي الأخيرُ قصيدةً له في الملتقى الفكري الاسلامي التاسع، والذي انْعقدَ في تلمسان في الجزائر في تموز «يوليو» سنة **١٩٧٥** للميلاد، فَيُضَمِّن الشاعرُ «الماجد!»، قصيدتَهُ تلكَ أَبْياتاً عابثةً، تدلُّ على «تحرُّره وتقدُّمه!»، وتشير إلى «الفرنجة!» التي تباهَيْنا بها، تشيرُ إلى ما هِمْنا به حبَّاً من لَهْوٍ فارغٍ، وإضاعةٍ للأعمارِ، فيما يُغْضبُ الربَّ سبحانه، متناسين أنه وكما قال المتنبي:

لولا العقــول لكـانَ أدْنى ضَيْغَمٍ
أدنـى إلى شرفٍ من الإنســان(١)

وجاء في قصيدة صالح جودت هذه قولُه:

وبئس ليلٌ ما به آهــةٌ
من أمِّ كلثـوم وَمِنْ أسْمَهــان

فتنطلِقُ شاعريةُ شاعرنا العظم، وتهتزُّ أوتارُ القريحةِ الأخَّاذةِ، وتَسْتَسْلمُ له القوافي، فيردُّ عليه مرتجلاً اثنيْ عشرَ بيْتاً، منها قولُه:

فأَيْنَ أينَ السـجـدات التي
نســجُـدهــا لله لا لِلْقــيانْ؟

---

(١) ديوان المتنبي، دار بيروت ص٤١٤.

وأينَ آياتُ الـهُـدى رُتِّـلَتْ
تزيِّن الأكـوانَ طولَ الـزمـان؟

وأين صدرٌ نابضٌ بالـتُّـقـى
وأين سيفٌ لا يُقـرُّ الهـوان؟
وأين ايمـانٌ به نرتـقـي
معارجَ الكون، ودينٌ يُصان؟[1]

وهذا الشاعر هشام العظم، يبشِّرُ بعقدِ قرانِه قائلاً:

وهكـذا عادت الأقـدار حانيةً
على هشـامٍ بتزويجٍ وتمكين
نكايةً بأخٍ، كمْ راحَ ينصحُني
بالكفِّ والصبر مِنْ حينٍ إلى حين

فتنْسابُ شاعريةُ شاعرِنا متدفِّقةً مِعْطاءَة، وتجودُ بهذه الأبيات:

قد سرَّني ما بدا فيما بعثْتَ به
مِنْ أحْرفٍ راقصاتِ الياء والنون
ومنْ حرارةِ دِفْءٍ قد ظَفِرْتَ به
كادتْ على البُعد بالقرطاس تكْويني

فاهْنَـأْ بصِدقِ ودادٍ كنت تنشُدُه
والقلبُ منك ينادي: لا تلوموني!
واهتفْ بنا بلسان الحالِ في مرحٍ

باتَتْ كؤوسُ الهنا والودِّ ترويني
قد كان نصحي عن حبٍّ ومرحمةٍ

يفيضُ من قلبي ألحاني ومِنْ ديني[2]

---

(١) ص٢٧٤.
(٢) ص٢٨٤.

ألفاظُ شاعرنا فصيحة، وتعابيرُه بليغة، حَمَلَتْ وراءَها معاني سامية عذبة، تَسُرُّ الدين وذا الدين، لا نريد أنْ نقول كما قال الجاحظ في أنَّ المعنى ليس مقياساً للبلاغة، كما لا نريد أنْ نرى ما رأى أبو عمرو الشيباني مِنْ أنَّ المعنى وحدَه مقياسُ البلاغة، وانَّما نقول إنَّ مقياسها المعنى واللفظ معاً، فاللفظ الحسَن يشينُهُ المعنى الرذيل، والعكسُ صحيح كذلك. لو أخذنا بتقسيمات ابن رشيق للشعراء، حين قسَّمهم أربع درجات، فَجَعَلَ منهم الشعرورَ الذي لا شيء له، والشاعرَ الذي فوق الرديء بدرجة، والمفلِّق الذي شعرُه جيد ولا رواية له، فإننا نستطيع أنْ نعدَّ شاعرنا العظم من النوع الرابع الذي سمَّاه ابن رشيق باسم الشاعر الخنذيذ، وهو الذي شعرُه جيد، ويروي الجيد من شعر غيره، فها هو «في رحاب الأقصى» تاج على جبين شعرنا في القرن العشرين، وحقَّ لشباب الأمَّة المحمديَّة أن تفخر به وبأمثاله، وتزهو بآدابه، وها هي أشعارُ غيره التي رواها في كتبه تشهد بذلك. أهيب بقرَّاء الأدب أن يَنْهلوا أدباً رفيعاً مهذَّباً ينمِّي الذوق، ويوطِّدُ أركان العزَّةِ الاسلاميَّةِ في نفوس الأجيال، ويبعثُ على الأمل، عندها تتراقصُ الأفئدةُ رقصةَ كرامةٍ وسؤدد، لا رقصةَ ذلٍّ وخنوع، أهيب بهم أن يقرأوا «في رحاب الأقصى» و«المنهزمون» قراءة واعية، فلقد واللهِ قضيتُ أيَّاماً في قراءتهما وغيرهما من كتُبه، طرحْتُها بعدَها ولسانُ حالي يقول: إنَّه لأديب كريمُ الْمَحْتَد، شريفُ المنبت، أصيلُ العنصر، طيِّبُ المغرس، هو مُعمٌّ مُخْول، راسخُ النسب، ليس مقرفاً، ولا هجيناً، ككثير مِنْ متطفِّلي الأدب الساقطين، وهو فوق هذا وذاك: شامخٌ في العِلْم. ومالي أطيل؟ هو غرَّةُ آل العظم الطيِّبين، وهو سنام النهج الاسلامي الفيَّاض في البلد الطيِّب، أُردنِّ الايمان، وآدابُه تُعَدُّ امتداداً للأصالة الاسلامية المشرِّفة في أُردنِّ الاسلام، الأصالة التي تشهد بها آثارُ السلف الصالح، الباقيةُ في هذا البلد المكافح حتى أيامنا هذه، هذه قلعةُ الربض في عجلون، قلعةٌ أبيَّةٌ عتيدة، بناها عزُّ الدين أسامة، من قادة صلاح الدين، صلاح الدين الذي أُقسم أنني ما ذُكر على مسمعي اسمُه إلَّا وأحسست بشَعْر جسدي يقف، وكأنَّ دمي غدا ماء نار، وكأنَّ القلم في يدي صار رُمْحاً أشقُّ به بطون القراطيس، بل وكأنَّه سنانٌ أنحرُ به رقاب الأوراق، قلعةُ الربض هذه كانت شوكةً في حلوق الصليبيين، إخوتَنا هذه الأيام «في العروبة!!».

وهذه قلعة الكرك، بناها صليبيون، فاقتحمها المسلمون واحتلُّوها، وهذه قلعةُ الشوبك، وقلعةُ السلط، وقلعة العقبة، بل هذه مقامات أبطال مؤتة: زيد وجعفر وابن رواحة في المزار، ومقامُ ضرار وأبي عبيدة في الغور الأوسط، ومقام شرحبيل بن حسنة في وادي اليابس، ومقام معاذ بن جبل القريب من الشونة الشمالية، ومقام ميسرة قرب السلط، ومقام زيد بن علي في الربة. أمَّا معان ـ بلد شاعرنا ـ عرين الايمان، فعلى مقربةٍ منْها ما زال صامداً جبلُ أبي موسى الأشعري، الذي جرى عليه التحكيم بين عليّ ومعاوية، ولقد شاءت الارادة الالهية التي لا تقهر، أن يَخْرُجَ منها شاعر الدعوة في أردنِّ الايمان، ولسانُ أدبه يقول: يا شعراء الجنس، يا شعراء تجَّار الوطنية، لا تختلفوا، فأنا بينكم الحكم، شِعْرَ الاسلام نَخْتار، شِعْرَ الايمان ننتخب، شِعْرَ الجهاد نُريد.

وكيف لا أقول هذا في «عظمنا» العظم، وقد وجدْناه وضَعَ لِشِعْرِ الدعوة الاسلامية أعلاماً لا تشتبه، وبنى له مناراً لا ينهدم، فأشعارُه دلائلُ ناطقة، وشواهدُ صادقة، وآياتٌ باهرة على النهج القويم الذي سلكه.

أمَّا أسلوبُه، ففصيح اللفظ مِنْ غير تكلُّف، نسَّاجٌ لما يريد، من عبارات كالسيف العضب، قريحتُه تجودُ حيثُ شاء، كَبُلْبُلٍ صَدَّاح، سَمْحُ البديهة، واسعُ المجال، رحيبُ الباع. أمَّا شِعْرُه، فَبَحْرٌ لا يُنْزَف، غَمْرٌ لا يُسْبَر، يَذِلُّ له القَوْل، مُجَنَّبٌ مواقفَ الزَلَل، مُؤَيَّدٌ بالتوفيق، يقومُ بحجَّته، ويعبِّرُ عَنْ ضَميره، وإنِّي لأسْتَبْعدُ أنْ يقرأ قارئٌ عربيٌّ أبياته:

وعـلى رأس كلِّ «جَـمْــعٍ» زعيمٌ
قَدْ تبــاهـى في قومــه وتَـبَـخْتَــر
كلَّمــا خرَّ في الــجـهــاد شهـيدٌ
أتْــرَعَ الكــأسَ من دمـاه ليسْكـر
لا يُبــالـي أنْ يُسْـتَـبــاح حمــاه
أو يدوس العدوُّ ساح المعسكر[1]

(١) ص٦٣.

ولا يقرُّ ما قلْت، فإنْ هو كابر، وزَعَم أنَّ شمساً لا تكون وسط نهار، فلْيقرأ قوله:

قذائفُها الخرساءُ ماذا أصابَها
لتصمتَ والعدوانُ في القدس جاثمُ

وكانت بكفِّ الحقِّ تلْقي لهيبَها
فتُنْثَر أطرافٌ وتهوي جماجمُ[1]

فإنْ أبتْ مكابرتُه إلَّا أنْ تظلَّ مكابِرَة، فعليه بدواء لنفسه، فقد يُبْتَلى بداء ليس له من دواء.

الله الله!، وهل من مسلم على أرض الله لا يتردَّد في نفسه سؤال كهذا، يرى القبلة الأولى في هوان، ومُسْلمونا لاهون مخدَّرون لا يعبهون، بالأمس كانت صيحةٌ من مظلوم تُحرِّك جيوشاً، واليوم آلافٌ وآلاف من أرامل ويتامى يستغيثون، أعراضٌ تُداس، كراماتٌ تُذَلُّ، أرواح تُزْهق، فصراخ واصطراخ، ولكنَّ تجَّار العروبة في صمم!!.

شاعرُنا ـ فوق هذا كلِّه ـ، رجلٌ أحبَّه أتقياء الناس حبَّاً لم يظفر به في هذا البلد غيرُ آحاد، وما ذَكَرْتُ مِن مآثره، ماهو إلَّا غَيْضٌ مِنْ فَيض، وقطرةٌ من بَحْر، وجزءٌ من كلّ، وَمَثَلي في هذه العجالة مع الشاعر، لا تعدو أن تكونَ شعاعَ شَمْسٍ تَسَلَّلَ مِنْ حنايا نافذة، أذكر أنني قرأْتُ في صحيفةٍ أردنيَّة، يوماً، أنَّ ندوةً شعريةً ستُعْقد في المدرسة الشاملة في مدينة الزرقاء الأردنية، يُحْييها شاعرُنا وشاعر فاضل آخر هو الشاعر كمال رشيد، من أبناء النكبة، وفَّقهما ربُّهما لِما يحبُّ ويحبَّان، وحرصْتُ أنْ أكون في الصف الأول، ويا لَهَوْلِ ما رأيْت، رأيتُ الحاضرين تصغي فيهم العقول والقلوب، أكثر ممَّا تصغي الآذان، رأيْتُهم ودُّوا لو شقُّوا جيوب القلوب ليحتضنوه، ورأَيْتُهم ودُّوا لو احتضنَتْه الأجفان ليهنأ ـ وفي حبَّان العيون، رأيتُ الناس مذهولين مبهورين لما يسمعون، وأمَّا أنا، فليسَ

(١) ص١٣٠.

مبالَغَة لو قُلْت إنَّ شَعْرَ جسدي كان يقف كلَّما نطق، ويضطجع مستريحاً إذا سكت، سمعتُه يلقي أبياتاً كان منها:

فلسطيني فلسطيني فلسطيني فلسطيني
ولكنْ في طريق الله والايمان والدين
أهيم براية اليرموك أهْوى أخْتَ حطين
تفجِّر طاقتي لهباً غضوباً من براكين
لأنزع حقَّيَ المغصوبَ مِن أشداقِ تنِّين
وأرفعُ رايةَ الأقصى وربُّ البيت يحميني

فجالَتْ في عينيَّ دمعتان ساختنان، عَمِلْتُ جاهداً أن أخفيَهما، وَوَدِدْتُ لو قبَّلْتُ فيه العيون، وَدِدْتُ لو كانت نيَّاتُ الناسِ حسنةً صافية، فأحْسَنوا بي ظنَّاً، لو حَمَلْتُه على رأسي ـ لو قَدِرْت ـ فهو ابن اثنتين وخمسين، ولربما زاد وزنه على الثمانين، وَدِدْتُ لو رقصْتُ فيه رقصةَ شهامةٍ وإباء، رقصةَ هيامٍ بالصلاح والصالح، رقصةَ اعتزازٍ بالايمان والمؤمن، رقصةَ فخارٍ بقائدِ فكر، وثاقبِ نظر، وسديد رأي، وأصيح بأعلى صوتي: يا أدباء، يا شعراء، يا كتَّاب، يا مثقَّفون، يا أحفاد قادة الاسلام الأول، صلُّوا وراء هذا وأمِّنوا، إنِّي أراه أصاب كبد الحقيقة التي عنها تبحثون.

أحمد ربِّي حمداً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، أنِّي وجدْتُ أثرَ شاعرنا ومَن مِثْله، ظاهراً لا يُجْحَد، وبادياً لا يخفى، أذكرُ في ميعة صباي أنِّي كنتُ أتردَّدُ على بيت الله، فلا أجد فيه غير شيوخٍ أحسُّوا بدنوِّ الأجل، هذا نائم، وذاك يصلِّي وهو جالس، وذاك تصلِّي بجانبه فتسمع شخيره وعيناه مفتوحتان، بلغ من الكبر عتيَّاً، ونالتْ منهُ السنون، وفعلتْ به الأيَّام فعْلَتَها، ولو عددتَ مَنْ في المسجد لما تجاوزوا الثلاثين، كنتُ يومها أحاول «اقناع!» والدي رحمه الله، علَّه «يخفِّف!» عنِّي، فلا يشترط عليَّ صلاة في مسجد، فقد كان أولئك الشيوخ يروني غريباً، وكأنني في غير مكاني، كنتُ اذا وقفْت في الصف الأول دفعني مَن فيه إلى الصف الثاني، ومَن في الثاني دفعني إلى الصف الثالث وهكذا،

وحتى أصبح في الأخير، أو في الباب، وربما أصبحتُ في صفٍّ أخير وحيداً، كانوا يشكُّون ما إذا كنتُ أعرف الطهارة أوْ لا، كانوا يُكثرون سؤالي عن كيفية الوضوء، وركعات الصلوات، كنتُ أشعرُ بشيءٍ من خجل أو احراج، فكلُّهم كبير، وأنا الوحيد الصغير، كنتُ يومها أسائل نفسي: أينَ الشباب؟ وهل الصلاةُ فُرِضَتْ على الشيوخ لا على الشباب؟ وتذكَّرْتُ أسامة الذي قاد جيشاً وهو إذ ذاك في أول شبابه، تذكَّرْتُ دور الخيالة واللهو عامرة، ومقاعدُها محجوزة لأيامٍ تالية، وبيتُ الله يحتاج مَنْ يعمُره، هكذا كانت الصورة، فانظر كيف صارت: صارتْ علاماتُ الخير بادية، ومؤشِّرات الايمان والهدى ظاهرة، وَعَمَرَتْ بيوتُ الله... وبالشباب، صِرْنا نرى شباباً اقتفوا سنَّة المصطفى عليه السلام، صِرْنا نرى شبابنا يتسابقون لاقتناء أمَّهات كتبِ الدين، صِرْنا نرى شبابَنا ما أنْ يسمعوا: حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح، حتى يتوافدوا بوجوه تشعُّ بالنور، كأنَّها أقمارٌ، أو دنانير ذهب، وما هي إلَّا لحظات، حتى يكتظَّ بيتُ الله بعباد الله، ومَنْ جاء بعدها، حرص أنْ يكون على كتفه مصلَّاهُ، وجلَس خارج المسجد محتملاً حرَّاً أو بَرْداً، فلقد بات واضحاً، ولكلِّ ذي عقل، أنْ لا خير في شرقٍ ولا في غرب، لا خير في اشتراكية هؤلاء، ولا في رأسمالية أولئك، ولنْ تعود لنا عزَّتُنا إلَّا برفع شعار هذا الدين، الذي رضيه لنا ربُّنا سبحانه، فأتمَّ علينا نعمته، نحمده ونحمده، فبالدين تقرُّ العيون، وتطمئن القلوب، ويتحقق النصرُ، وتُصان الأعراض.